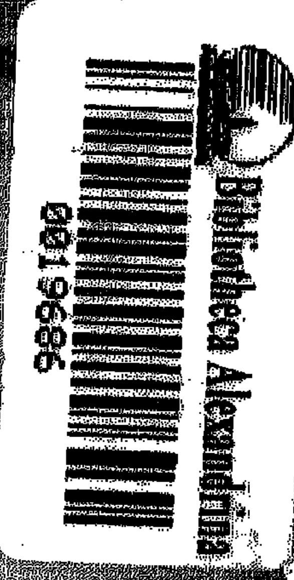
الحب في صدر الإسلام

أفنان البركة



دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة

عبده غريب

الحب في صدر الإسلام

الحب في صدر الإسلام

إقبال بركة

الناشر
دار قبـــــاء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتـــــاب : الحب فى صدر الإسلام
المؤلـــف : إقبال بركة
تاريخ النشــر : ١٩٩٨

الناشــــــر : دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
المركز الرئيسى : مدينة العاشر من رمضان
والمطابـع : المنطقة الصناعية (C1)
ت: ٠١٥/٣٦٢٧٧٢٧
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز ـ عمارة برج آمون
الدور الأول ـ شقة ٦
ت ، ف : ٢٤٧٤٠٣٨
التــوزيــــع : ١٠ ش كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
رقـم الإيداع : ٧٠٥٥ / ٩٧
الترقيم الدولى : I.S.B.N
977 - 5810 -25 -6


بسم الله الرحمن الرحيم

الافتتاحية

ماذا حدث للعرب بعد أن تغيرت عقيدتهم من الوثنية إلى الاسلام ...؟!

هل تنسكوا وترهبنوا ونبذوا متع الحياة جميعها؟!

هل تنصلوا من العلاقات العاطفية وتنكروا للمشاعر ونزعوا قلوبهم من صدورهم؟!

لم يحدث شئ من هذا، بل إن المؤرخين يؤكدون لنا أن العرب في شبه الجزيرة انطلقوا على سجيتهم كما كانوا يفعلون قبل الإسلام، فيقول الكاتب الكبير "أحمد أمين" في موسوعته الإسلامية "بل كثير من شبان بنى أمية، وبعض شبان بنى هاشم كانوا يعيشون عيشة هى إلى الجاهلية أقرب منها إلى الإسلام، شراب وصيد وغزل، كزيد بن معاوية وصحبه، فقد حكى السعودى "أنه كان صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة،

واستعملت الملاهى، وأظهر الناس شرب الشراب، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله". فجر الإسلام صـ ٨١.

ويحكى أبو الفرج الأصفهانى في كتابه الشهير "الأغانى" أن المغنين في ذلك العصر زاد عددهم حتى أنهم كانوا يخرجون إلى الحج قوافل. وأن أربعة منهم صاروا من الشهرة والنجاح بمكة لدرجة انهم كتبوا إلى أحدهم – وكان وحده بالعراق – لكى يأتى لزيارتهم بمكة. فلما فعل اجتمعوا جميعاً بمنزل سكينة بنت الحسين، وكانت معروفة بحبها للطرب واجتماع الناس عندها للاستماع للمغنين ولكن عدد الناس زاد في تلك الليلة لدرجة أنهم ازدحموا على سطح المنزل، فسقط السقف بهم ومات حنين – المطرب الذى جاء من العراق – تحت الهدم" (الأغانى).

وما يعنينا أن هؤلاء المغنين كانوا يتغنون بأشعار الشعراء، وأحلى ما يصلح للغناء كما هو معروف شعر الغزل. وقد تأثر شعر الغزل في ذلك العصر بالغناء فأصبح على هيئة مقطوعات قصيرة ذات أوزان مجزوءة خفيفة، كما عنى الشعراء باختيار ألفاظ رقيقة وعبارات سهلة مألوفة تكاد تقرب من لغة الحياة اليومية.

ويقول الدكتور "محمد عبد القادر أحمد" في كتابه "دراسات في أدب ونصوص العصر الأموى" إن غزل الحجاز في ذلك العصر تميز عن الغزل الذى كان شعراء الجاهلية يصدرون به قصائدهم بأنه خلا "من المجاهرة بالفحش والصراحة في وصف العلاقة بين الرجل والمرأة." وأنهم أفردوا قصائد كاملة خصصوها للغزل " لم يقتصروا (فيها) على الناحية المادية من المرأة بل تحدثوا أيضاً عن عاطفتهم حديثاً مباشراً. ويظهر من شعرهم أنهم عرفوا الحب وتذوقوه، وأدركوا مواضع الفتنة في المرأة ادراك المنفعل لا ادراك المقلد المحاكى كما فعل كثير من الشعراء الجاهليين في مقدمات قصائدهم"

هذا هو الفرق الجوهرى بين الشعراء العرب في صدر الإسلام الذين اشتهروا بالتشبب بالمرأة وتفرغوا لنظم أشعار الغزل - لاهيا وعفيفاً - مثل عمر بن ابى ربيعة والعرجى والأحوص وجميل وكثير وقيس بن الملوح وغيرهم من شعراء صدر الإسلام.

لقد عرفوا الحب، وذاقوا حلاوة لقاء المرأة. ولم تكن نفس المرأة التى عرفها أجدادهم في الجاهلية، بل امرأة جديدة يصفها د. محمد عبد القادر في كتابه قائلاً:

"وكانت المرأة في ذلك العصر قد أخذت تتمتع بقسط من الحرية والانطلاق، فكانت لاترى بأساً من البروز إلى الرجال ومحادثتهم، وكان لشيوع التسرى وكثرة الإماء، واختلاط العرب بالأعاجم أثره في الحياة الاجتماعية، فصار الأشراف وأبناء الصحابة لايرون بأساً في حضور مجالس الغناء واللهو، وفي سماع الشعر الغزلى الماجن، وصارت شريفات النساء يتبارين في التزين والتبرج ويتنافسن في ابراز محاسنهن، ويروى أن السيدة سكينة كانت لها تسريحة شعر عرفت بها وكانت النساء يقلدنها فيها ..."

حدث هذا كله دون خروج عن قيم الإسلام وتعاليمه، ودون أن يرى أحد من المعاصرين أنه كفر وانحلال بل كما يقول د. عبد القادر "لقد نالت المرأة الحجازية الحضرية قسطاً وافراً من الحرية في العصر الأموى لمنافسة الجوارى الأجنبيات لها عند الرجال غير أن هذا لم يدفعها إلى الانزلاق إلى مهاوى المجون والانحلال الخلقى، فهى امرأة مترفة متحررة منعمة تقيم صلتها بالرجل على نوع من الحرية يحوطه سياج من العفة والطهر"

إن هذه الحرية العفيفة التى منحها الإسلام للمرأة العربية جعلت منها مخلوقة جديدة، تتأهب لأداء دورها في الحياة جنباً إلى جنب الرجال ليبنيا معا الدولة الإسلامية على أنقاض الدولة الفارسية والرومية البيزنطية.

وفي كتابى هذا محاولة لقراءة قصص الحب العذري في المرحلة الأولى من أنتشار الاسلام وبعد أن استقر أمر الدولة الإسلامية وأصبح لشريعتها اليد العليا.

إنها قراءة جديدة لقصص قديمة ..

قراءة بعيون عصرية .. عيون امرأة القرن العشرين المشرف على نهايته .. امرأة تؤمن بالحب وبتأثيره الرائع على قلب الإنسان ونفسه وعقله .. فبدون الحب لايمكن أن تنمو وتزدهر الرغبة في الحياة لدى الشاب أو الشابة .. وبدون الحب لا يطمح المرء للأفضل ولا يسعى للأحسن أنه يتحول إلى حيوان لاهم له إلا إرضاء غرائزه والبقاء – دون هدف – على قيد الحياة.

إن قصص الحب في صدر الإسلام تظهر لنا كيف تخطت تلك العاطفة الطاهرة حدود الزمان والمكان، وكيف

قفزت فوق الأسوار الشائكة واقتحمت الحصون، وسارت في الصحارى وأثرت على ألحان الموسيقيين وطعَّمت أشعار الشعراء بأنبل المشاعر وأرق المعاني.

فكيوبيد – إله الحب – طفل برئ لايمل من اطلاق سهامه العشوائية التى تصيب الأذن فتعشق قبل العين أحياناً، وتقتحم خلوة القس فيتيه حباً في مغنية، وتخترق عقل شاعر فيذهل وينسى الفوارق الطبقية ويعبر عن حبه لبنت الخليفة ..

ومع كيوبيد وأشعار العرب وحكايات الحب الجميل سنقضي معاً وقتاً رائعاً.

وسوف ندرك أن الدين الحنيف نزل على البشر ليسعدهم لا ليشقيهم، ليعمق انسانيتهم، لا ليلغيها، ليرقق مشاعرهم ويجعلهم يتذوقون حلاوة الحياة وروعة الحب وجمال الابداع الالهي في خلقه ..

وبالحب تتطهر النفوس ويعلو البشر على الصغائر ويسعون للخير ويعزفون عن التطاحن والتباغض ..

إنه الحب .. الذي يصنع المعجزات .. في كل زمان ومكان.

قيس ذلك المجنون

ليلى، عزة، بثينة، عفراء، مي.. وأسماء أخرى عديدة خلدها شعراؤنا العرب في قصائد حب رائعة. ولكن .. هناك ظاهرة تجمع أغلب قصص الحب العربية، فسواء كانت هذه القصص واقعية، أو كانت من نسج خيال الشعراء فهي تتفق جميعاً في ظاهرة واحدة: الموقف السلبي للمرأة! فالمرأة في أغلب القصص مخلوقة تحب وتتبع أو تطارد، ويهيم بها الشاعر، وتلهمه بالقصيدة، وقد يحدث خلاف أو صراع بين الحبيب الشاعر وبين أهل محبوبته، وقد يقتتلون، إلا أننا لانعثر على موقف لتلك المحبوبة كأنها متفرج يجلس بعيداً عن مسرح الاحداث. والمتفرج قد يصفق تأييداً أو يهلل احتجاجاً، بل وقد يشارك الممثل في حوار ممتد أو قصير .. أما المحبوبة فهي تكتفي بالفرجة!

والحب في كل العصور هو هو .. رجفة تصيب القلب، ونداء يلح على الجسد، ونار تتأجج في الوجدان كلما شوهد المحبوب أو جاءت سيرته. ولابد أن بطلات قصص الحب العربية قد شعرن بهذه الأعراض، ولابد أن إحداهن اعترفت بذلك صراحة لصديقة لها، أو ألمحت به للمحب الولهان في أبيات من الشعر لا نعرف إن كانت قد أبدعتها فعلا أم ألفت نيابة عنها..

أما الخطوة التالية .. التحرك نحو الفعل .. اتخاذ الموقف .. فهذه ليست من اختصاص المحبوبة .. دائما يقوم بها الرجل!

وإذا كان شوقي يقول إن الحب نظرة فابتسامة فسلام فكلام، فموعد،فلقاء .. ففراق يكون فيه دواء أو .. الخ، فإن كل هذه الافعال لايقوم بها إلا الرجل .. يبدأ هو .. فنتبعه ..

أغلب قصص الحب المشهورة حدثت في صدر الإسلام وأشهرها على الاطلاق حكاية ليلى والمجنون .. والمجنون هو قيس بن الملوح ابن عم ليلى، يلعبان في الصبا، ويرعيان الغنم معا في البادية العربية، كان ذلك في القرن الأول الهجرى، في وقت كانت البادية العربية تعيش في عزلة نسبية.

لقد انتشر الاسلام، واثر في نفوس البدو، وغير من مفاهيمهم الاجتماعية، وبدأت العلاقة بين الرجل والمرأة تتخذ شكلا جديدا، الحياة كلها اختلفت صورتها عن أيام العهد الجاهلي القريب. لقد جاء الاسلام فرفع من منزلة المرأة العربية. لم تعد واحدة من أساليب اللهو التي اعتاد عليها البدوي ليحقق وجوده الضائع في الصحراء المترامية الاطراف الى جانب الخمر والميسر، إن الدين الجديد يحرم عليه الخمر ويحرم عليه الميسر، ويفرض عليه قيودا دينية واجتماعية وخلقية. ولكن الفراغ قاتل .. والشباب مارد في الجسد يود أن ينطلق، ونافذته القلب .. وكل شئ من حول الشباب يدعو للحب ويطالب به، فينظر حوله، ولا يرى إلا بنات أعمامه، أنهن رفيقات اللعب في الصبا، واول من يتعرف اليهن من نوع الانثى .. ويختار الشاب احداهن .. تسحره نظرة منها أو التفاتة أو كلمة عابرة .. ويميل القلب نحوها ولكن فجأة تختفي بنت العم تماما .. لقد حجبتها التقاليد داخل خيمتها، لاتخرج منها إلا بصحبة حارسة، وإلا للضرورة القصوى، انها الآن تعد لدخول الحياة الزوجية لا لعب برئ ولاضحكات طفولية ولا دعابات متبادلة بل صمت .. وإحساس مرير بالوحدة ..

هذه الظروف ما هي إلا تربة خصبة لنمو العاطفة واشتعالها .. فيستبد الوجد والشوق إلى المحبوبة ويزداد التعلق بها، وتسيطر صورتها على خيال الحبيب ولا يفكر الا فيها .. إن حياته كلها أحلامه وأشواقه تتقطر وتتركز في نقطة واحدة: أن يراها. ويتحول الشاب الذي كان يزهو بفتوته بين أقرانه، إلى شبح هزيل يجوب الصحراء، تتقاذفه العلل والاوهام، يردد أبيات شعر رائعة عن حبه وعن ذكريات طفولته ويذكر فيها ليلى بنت عمه كثيراً ..

أخيراً يتقدم قيس إلى عمه طالباً الزواج من ابنته ليلى .. وبدلا من أن يفرح العم ويرحب، إذا به يرفض، ويصر على الرفض. لماذا؟ لأن التقاليد تمنع العرب من الموافقة على زواج ابنته من رجل تشبب بها أى تغزل فيها في شعره !!

ولا أحد يعرف ما هي هذه التقاليد. هل هي وحش كاسر يمسك بخناق الناس في ظلام الليل ويحول بينهم وبين السعادة لأسباب في نفسه..!! المهم أنهم دائما يخضعون ودائما ما تكون الضحية هي الشباب. ويصبح من المعقول والمقبول أن تتزوج ليلى من فتى من قبيلة ثقيف، لاتعرف عنه شيئا ولم تره من قبل

في حياتها، ولا يزيد عن قيس ابن عمها في شئ. ولا نعرف هل بكت ليلى؟. هل قاومت؟، هل أضربت عن الطعام؟! لكننا نعرف أنها تزوجت من ذلك الفتى، وأنه صحبها معه إلى الطائف، ولعل ذلك الحل كان بوحي من أبيها الذي شاء أن يبعدها عن مسرح الاحداث.

ويترك قيس وحيدا، فيصاب بالجنون. ولاشك أن عقله عجز تماما عن فهم أو تقبل ذلك المنطق المخبول الذي خضع له عمه، وكل القبيلة .. التي لم يحاول أحد فيها أن يلين من صلابة رأس ذلك الرجل، أو يوفق بين الرأسين في الحلال ..

ولا شك أن ذلك العم كانت لديه أسباب عديدة .. لكن أحدا لايخبرنا عنها. أننا نعرف فقط أن التقاليد العربية في ذلك الوقت هي التى أملت عليه كلمة لا، وأن هذه الكلمة تعلقت بلسانه، وسدت أذنيه وأغمضت عينيه فلم ير ابن اخيه يهيم في الصحراء، ولم يرق قلبه وهو يستمع لأرقى الشعر يردده كل الناس بعد قيس، يصور فيه لوعته ويذيب شبابه الغض قطرة قطرة على رمال الصحراء التى لا ترتوي. ثم يلقى حتفه في واد مهجور، بعيداً عن أهله الذين قدموه قرباناً لصنم وهمي، وليلى التى عذبته بحبها ..

إنني أخرج من هذه القصة بواحد من تفسيرين:

إما أن ذلك العم لا يعرف الحب أبداً، فلم تتسارع دقات قلبه ولم يجف حلقه ولم يهرب الكلام من عقله عند مرأى حبيبة، وإما أنه مولع بالشعر إلى درجة الهوس فهو اكتشف ان البعد والصد والهجر والحرمان وكل ما يصيب قلب العاشق باللوعة يلهمه بأروع الشعر.

والعتب هنا على الشعراء الذين أفاضوا - ومازالوا يفيضون - بوصف مشاعرهم بعد الفراق، والصلح بعد الخصام، الخ فيقول قيس في إحدى قصائده:

فوالله ثم الله إني لدائب

أفكر ما ذنبي إليك وأعجب

ووالله ما أدري علام قتلتني

وأى أمور فيك ياليل أركب

أأقطع حبل الوصل فالموت دونه

أم أشرب رنقا منكم ليس يشرب

أم أهرب حتى لا أرى لي مجاورا

أم أصنع ماذا أم أبوح فأغلب

فأيهما ياليل ما ترتضين

فإني لمظلوم وإنى لمتعب

مسكين قيس، لم يسرق ولم يزن ولم يقتل أحداً ومع ذلك حكمت عليه قبيلته بالموت .. لأنه .. أحب .. ولأنه ذاب في العشق، ولانه كان واضحا صريحا، فلم يخف مشاعره ولا لجأ إلى الحيلة والخديعة. ولاشك أنه كان شخصية فريدة من نوعها .. أو لعلها المبالغات التي يولع بها الناس فيزينون بها قصص الحب تعبيراً عما تختزنه قلوبهم من كبت وحرمان يقولون: إن قيساً كان يغمى عليه كلما ذكر اسم ليلى، وسواء كان الحديث عنها بمكروه أو بخير فهو يغشى عليه بمجرد سماعه اسمها! ويقولون إنه وقف ذات يوم يتحدث إلى ليلى وفي يده جمرة من نار فأخذت النار تحرق رداءه حتى أتت عليه ووصلت إلى جسمه وقيس لا يشعر! وفي أواخر أيامه حكي عن قيس أنه عاش مع الوحش فأنس إليه وفضله على بنى الانسان، وأن الوحوش أيضاً صارت تأنس إليه! أى ان قلوبهم رقت لحاله، بينما ظلت قلوب أهله كالحجر الذي لم يتفتت ولم يذب لسماع أشعار قيس

الرائعة، وهي أشعار لا تعبر إلا عن غزل عفيف يعكس طموح البدوي إلى المثل الأعلى في الحب. إن أشعار قيس تعطينا صورة صادقة عن حياة البادية في أوائل تعرفها بالإسلام وفي مرحلة تخلصها من العادات الجاهلية الموروثة. إن البدوي مازال يميل إلى الزهد عن متع الحياة وشهواتها وأطماعها المادية والسياسية .. ومع ذلك فهو لا يستغنى عن الحب، بل إنه يزداد احتياجا له بعد أن رقق الاسلام مشاعره، وأبعده عن مادية العصر الجاهلى ووحشيته ..

ويبقى سؤال. هل قصة ليلى والمجنون واقعية أم انها نسج من الخيال؟ .. ان الدكتور طه حسين يشك في هذه القصة، ويعتبرها "من أشد القصص سخفا واكثرها غلوا وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد". وهناك من يصر على أن حكاية ليلى وقيس حدثت بالفعل، وأن الاشعار الجميلة التي ظل العرب يرددونها أجيالا طويلة وينسبونها إلى قيس بن الملوح هي من إبداعه فعلا، وليست من التراث الشعبي مجهول المؤلف.

على أية حال لقد أثرت هذه القصة أو الحكاية في التراث الأدبي العربي، وامتد تأثيرها إلى العصر الحديث حيث تتكرر قصة العاشق المغلوب على أمره، والحبيبة السلبية الضعيفة والأهل القساة، ليس فقط في قصصنا بل وفي أفلامنا السينمائية ... ولكن أغلبها لحسن الحظ تنتهي نهاية سعيدة، حيث ينهزم العوازل (الأهل في معظم الافلام) وتنهار الحواجز وتزف العروس إلى عريسها ..

ولكن يظل هناك تساؤلاً:

هل يمكن قمع الحب؟

- هل سيأتي يوم يتوقف فيه الرجل عن الحنين إلى المرأة، والمرأة عن الولع بالرجل؟!

مستحيل فهذه سنة الحياة، ومن أجل هذا خلق الله آدم وحواء، ولو شاء لكان خلق الانسان من نوع واحد يتوالد من نفسه كما يحدث لبعض الديدان، وبعض الاسماك وبعض الحشرات لكنه يقول في كتابه الكريم:

﴿ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ صدق اللّه العظيم.

ويقول جل شأنه أيضاً:

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ . صدق اللّه العظيم

التعارف إذن أحد أسباب خلق الخالق للرجل والمرأة، من أجل الوصول إلى أقصى درجة في التآلف: المودة والرحمة. فكيف إذن يتم ذلك وكل من المرأة والرجل يزداد اغترابا عن الآخر، ويعيش خلف حجب كثيفة، يجتر الشوق المريض، وتتوالد في خياله الأوهام وتترعرع الاكاذيب، وتنمو بطبيعة الحال كل أنواع الامراض النفسية!

لقد أثبتت الأيام أنه كلما تم الفصل بين الجنسين وحجبهما عن بعضهما البعض، كلما تأجج في القلوب الشوق إلى التلاقي، وابتدعت العقول من أساليب الوصال مالا يخطر على البال. ولنتأمل معا قصص الحب الشهيرة التي حدثت في صدر

الإسلام، وتناقلتها الاجيال، وحفظ الناس أشعارها عن ظهر قلب.

من هذه القصص الشهيرة حكاية قيس آخر، هو قيس بن ذريح الذي عشق لبنى في زمن معاوية.

كان قيس ابن أحد أثرياء البادية، وكان أخا منَ الرضاعة للحسين بن علي، وذات يوم حار كان يسير في الصحراء فشعر بالعطش الشديد، واقترب من احدى الخيام طالبا ماء للشرب.. فخرجت له فتاة طويلة القامة رائعة الجمال ذات حديث حلو هي لبنى بنت الحباب. أسقته لبنى، فلما استدار ليمضي إلى حال سبيله دعته لان يرتاح في خيمتهم قليلاً ويستبرد. فقبل دعوتها وهو يتأملها باعجاب شديد.

وتقول الحكاية أن أباها الحباب جاء فوجد قيسا يستريح عندهم فرحب به وامر بنحر الذبائح من اجله واستبقاه يوما كاملاً، وعندما عاد قيس إلى ابيه حدثه في أمر زواجه من لبنى، لكن الاب ذا الثراء العريض كان يريد ان يزوجه واحدة من بنات أعمامه ليحفظ ثروة العائلة.

لم يجد قيس بن ذريح اذنا صاغية لدى والده، فلم ييأس وذهب إلى الحسين بن علي، أخيه من الرضاعة، وشكا له حاله، فتدخل الحسين لدى العائلتين وتمت النهاية السعيدة: تزوج قيس من لبناه، لكن القدر لم يشأ للعاشقين أن يتحولا إلى زوجين عاديين ممن يقتلهما السأم، ولعل حكمته في ذلك ان يستمر الشاعر قيس بن ذريح في نظم اشعاره الجميلة. ظل الزوجان معا، لعدة سنوات دون ان ينجبا، ودون تردد أشاعت الأسرة أن لبنى عاقر.

ولما كان أبو قيس تواقا لذرية تتوارث ثروته الطائلة، فقد ألح على ابنه أن يتزوج من أخرى لتنجب له البنين والبنات.

لكن قيسا أبى .. لقد أشفق على حبه القديم لبنى من ضرة تشقيها وتعذبها. وظل الأب يلح ويسوق عليه كبار القوم، دون جدوى وامعانا في الضغط عليه اقسم الاب ألا يظله سقف بيت طالما ظل ابنه مبقيا على زواجه من لبنى.

كان قيس شديد البر بوالده فلم يشأ أن يتركه يتعذب في الهجير، واضطر اضطرارا لأن يطلق لبنى.

إلا أنه ظل العمر كله نادما على فعلته مشتاقا للقائها يردد في أسى:

يقولون لبنى فتنة كنت قلبها بخير فلا تندم عليها وطلق

فطاوعت أعدائي وعصيت ناصحي واقررت عين الشامت المتملق

وودت وبيت اللّه أني عصيته وحملت في رضوانها كل موثق

وكلفت خوض البحر والبحر الزاخر أبيت على إثباج موج مفرق

كأني أرى الناس المحبين بعدها عصارة ماء الحنظل المتفلق

فتنكر عيني بعدها كل منظر ويكره سمعي بعدها كل منطق

ولم يتوقف قيس عن ملاحقة لبنى بعد الطلاق. فاضطر أبوها إلى أن يشكوه الى معاوية، فكتب معاوية إلى مروان بن الحكم يهدر دم قيس إن هو تعرض للبنى.

سمعت لبنى بذلك فقبلت الزواج من رجل آخر يدعى خالد بن حلزة، لكي تجبر قيسا على الابتعاد عنها وتحميه من القتل. فعلت لبنى ذلك وهي ما تزال تكن كل الحب لزوجها السابق قيس.

كان قيس يعرف ذلك ويعرف أنها تحبه بمقدار ما أحبها، فركب راحلته وذهب إلى خيام أهلها وهناك راح ينشد الشعر وهو ينشج:

إن تك لبنى قد أتى دون قربها

حجاب منيع ما إليه سبيل

فإن نسيم الجو يجمع بيننا

ونبصر قرن الشمس حين تزول

وأرواحنا بالليل في الحي تلتقي

ونعلم أيا بالنهار نقيل

وتجمعنا الأرض القرار وتوقنا

سماء نرى فيها النجوم تجول

وقد روى الاصفهاني في كتابه "الاغانى" أن أشعار قيس لحنها الملحنون وغناها المطربون فاشتهرت وذاع صيتها وسمع بها زوج لبنى فثار عليها، لكنها لم تعبأ بثورته وطالبته أن يطلقها إن شاء. وأدرك الزوج ألا خطأ لها ولا ذنب، فهدأت

ثائرته، ويقال انه أراد أن يصلحها فأحضر الجواري من المدينة ليغنين لها أشعار قيس!

حكاية لبنى تختلف كثيراً عن صاحبتيها ليلى وبثينة، فالقدر هو الذي فرق بينها وبين قيس بن ذريح، ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئا وليومنا هذا مازال الاتهام يحاصر الزوجة أولا إذا لم تنجب، فإذا ثبت أن الزوج هو السبب نصحت بأن تضحي من أجله وتبقى معه، أما إذا ثبت أن الزوجة هى العاقر فلا أحد يطالب الزوج بأي تضحية، ويصبح من حقه أن يتزوج عليها أو ان يطلقها. وحكاية الاصفهاني تدلل على ان لبنى لم تسلم قلبها للزوج الثانى الذى فرض عليها فرضاً، وظلت حزينة مجروحة الفؤاد تبكي بحرقة كلما تذكرت قيسا، أو كلما سمعت أشعاره الحزينة ترددها الجواري في مجالس الغناء. ظلت لبنى على هذا الحال حتى ماتت. فبكاها قيس وأنشد على قبرها:

ماتت لبينى فموتها موتي

هل تنفعن حسرتي على الفوت

وسوف أبكي بكاء مكتئب

قضى حياة وجدا على موت

ويقال انه فقد عقله، وظل طريح الفراش حتى لحق بها، فدفن إلى جوارها.

وهكذا لم يستطع تحكم الأهل ولاسيطرة العرف والتقاليد، ولا احتجاب لبنى عن حبيبها، أو ابتعادها أو زواجها من رجل آخر أن يحملوا قيسا على نسيانها. بل لعل هذه الأمور مجتمعة كانت وقودا أشعل نار الحب في قلب شاعرنا.وجعلها تزداد اضطراما مع الايام، كما كانت جذوة الهبت موهبته فانطلق يقول أعذب الشعر.

ويبقى سؤال هل كان قيس بن ذريح سيقول كل ذلك الشعر الجميل لو لم يلتق بلبنى ولم يحبها ولم يجبر على فراقها؟!

يقولون أن أعذب الشعر أكذبه. وهم يعنون أن أروع الشعر ما يلجأ إلى الخيال ولا يرتكن إلى الحقيقة، ولكن حكايات العشاق تجعلنا نصدق أن عاطفة ما، كانت وراء تلك الابداعات وأن ظروفا معينة لابد أن تحدث للشاعر كي تتولد طاقته على الابداع فما هى هذه الظروف ...؟!

عروة وعفراء

أغلب حكايات الحب العفيف؛ الحب العذرى حدثت في القرن الاول من الاسلام وفي البادية هناك حيث يمتد البصر إلى مالا نهاية وتتواصل السماء مع الأرض في تزاوج أبدي تصفو الروح وتستبين الرؤية، ويتوق الانسان لرفيق يؤنس وحدته ويزيل الوحشة والكآبة من قلبه ..

في البادية التقى قيس بن الملوح بابنة عمه ليلى، ورأى قيس بن ذريح لبنى، وتعلق جميل ببثينة وأيضاً التقى عروة بن حزام بابنة عمه عفراء.

لقد تربى عروة في بيت عمه، والد عفراء. لكنه كان فقيرا. ومنذ الطفولة المبكرة ربط الحب بين قلبى الصبيين، فلما شب عروة عن الطوق أراد أن يتزوج حبيبته، وصارح عمه برغبته. طلب الأب مهراً غالياً. ثم شجع ابن أخيه على

الارتحال للبحث عن رزقه عسى أن يعود بمال وفير، ولم يكذب عروة خبرا، فذهب ثم عاد وجيبه عامر بالمهر وما يزيد، إلا أنه وجد حبيبته ورفيقة صباه قد زفت إلى رجل آخر، وتركت البادية إلى الشام حيث يعيش زوجها ...!

وكما يحدث دائماً للعشاق، فلا المسافات ولا الأزمنة يمكن أن تحول بينهم وبين من سكنت الفؤاد وهامت بها الروح - يشد عروة رحاله إلى الشام وينزل ضيفا على عفراء، بنت عمه. لكنه لا يلتقى بها بل بزوجها الذي يماطل في اخبار زوجته بنبأ وصول ابن عمها.

ويفكر عروة في حيلة عجيبة، يلقى بخاتمه في اناء اللبن ويبعث بالاناء الى عفراء مع احدى الجوارى. وتدرك عفراء على الفور أن حبيبها قدعاد فتلتقى به ..

وهكذا .. دائما يجد العشاق وسيلة للتواصل، على الرغم من الحريم. والحجاب المنيع والحراس المدججين وحيل العزال. إن هذه الأمور جميعا تتحول إلى رمال هشة وتماثيل من القش تطير مع أول تنهيدة ساخنة من قلب العاشق الولهان.

لكـن اللقـاء لا يطفـئ لهيـب الحـب فـي قلـب عـروة، فيعـود إلـى الباديـة عليـلاً هزيـلاً لا ينفـع فـي علاجـه أى طـب. ويظـل يهـذى باسـم عفـراء ويحـادث طيفهـا حتـى توافيـه المنيـة! ويصـل خـبره إلـى عفـراء فـي الشـام فتجـزع عليـه اشـد الجـزع وتبكيـه بحرقـة، وتمتنـع عـن الطعـام والشـراب حتـى تلحـق بـه بعـد فـترة وجـيزة وتدفـن فـي قـبر بجـواره. ومـن القـبر تنبـت شـجرتان غريبتـان لـم يـر النـاس مثلهمـا مـن قبـل، هكـذا تـروى الحكايـة، وتظـل الشـجرتان تنمـوان حتـى تلتـف أحداهمـا علـى الاخـرى، تحقيقـاً لأمـل قديـم ظـل يطـار قلبين شقيا بـالحب حتـى ماتـا.

جميل والحب العذرى

هل تحب المرأة من أجل الحب أى من أجل الاستمتاع برجفة القلب عند اللقاء، وحرارة التلاقى ومتعة الشوق! ام أنها تشجع المحبوب على الوقوع في حبها لتتنعم بأبيات شعره فيها، ويخلد اسمها في التاريخ ..؟

هل تشجع المرأة الرجل على الوقوع في حبها لمجرد التباهي والتفاخر بين صديقاتها والناس؟!

هذه بعض الشكوك التي تتعثر فيها المرأة اليوم، بعد أن خرجت الى العمل وأصبحت تستمتع باستقلالها الاقتصادى وقدر لابأس به من الحرية الاجتماعية.

ولكننا إذا عدنا الى قصص الحب القديمة، وتأملنا بعضها ستصيبنا الدهشة مرة أخرى من مواقف المحبوبات، أو أولئك النساء المحظوظات اللاتى تغنى بهن الشعراء في صدر الاسلام، وأصبحت أسماؤهن اعلاما على قصص الغرام، يتداولها الناس من جيل الى جيل، ولا يمل المحبون من ترديدها.

في العصر الأموي وفي عهد الخليفة عبد الملك بن مروان أو الخليفة الوليد بن عبد الملك حدثت قصة جميل وبثينة.

كانت بثينة فتاة حلوة من بني الاحب، وهم من رهط بنى عذرة، وكذلك جميل، كان من رهط آخر من بني عذرة هم رهط عامر، وبني عذرة كانت تنزل في البادية العربية شمال الحجاز، في وادي القرى الذي يقع على مقربة من الطريق التجاري بين مكة والشام. وهو واد خصب، استقرت به تلك القبيلة، وكانت مشهورة منذ العصر الجاهلي بالقوة والمنعة والشرف. وقد دخلت بنو عذرة الاسلام في السنة السابقة للهجرة، وشارك أبناؤها في غزوات الرسول وفي الفتوحات الاسلامية.

وإلى بنى عذرة ينسب الحب العذري، وهو نوع من الوجد يستبد بالعاشق فيسيطر عليه خيال محبوبته، ويظل يفكر فيها ليلا ونهارا، ممتنعا عن العمل والطعام حتى يصل إلى درجة من الهزال قد تفضى به إلى **الموت!.**

حدث هذا لشاعرنا جميل عندما رأى بثينة وهو يرعى إبل أهله. جاءت بثينة بإبل لها لترد بها الماء، فنفرت ابل جميل، فسبها، ولم تسكت بثينة وإنما ردت عليه، أى سبته هى أيضاً! وبدلا من أن يغضب أعجب بها، وتطور الاعجاب إلى حب، ووجد ذلك صدى لديها، فأحبته هى أيضاً، وراحا يتواعدان سرا. وكلما التقيا زادت أشواقهما. فيكرران اللقاء حتى وصل الخبر إلى أهل بثينة. وبدلاً من أن يقبلوا يد جميل التى امتدت تطلب القرب منهم في ابنتهم رفضوها. وتوعدوه بالانتقام، ولكي يزيدوا النار اشتعالاً سارعوا بتزويج ابنتهم من فتى منهم. وتقول الحكايات أن جميلا لم يستسلم، بل راح يتحدى أهل بثينة، ويهزأ بهم. ويهددهم منشدا:

ولو أن الــفا دون بثينة كلهم

غيارى، وكل حارب مزمع قتلى

لحاولتها إما نهارا مجاهرا

وإما سرى ليل ولو قطعت رجلى

كان جميل فارسا شجاعا يعتز بسيفه وسهامه، فلم يتأثر حبه لبثينة بزواجها، ووجد السبل إلى لقائها سراً في غفلة من الزوج. ويعلم الزوج باستمرار علاقة بثينة بجميل ولقاءاتهما السرية، فيلجأ إلى أهلها ويشكوها لهم، لكى تتوقف اللقاءات فترة، ثم تعود أقوى وأشد مما كانت ..!

معنى ذلك أن بثينة لم تكن تعبأ بما قد يفعله زوجها أو أهلها لقد أرغموها على الزواج بمن لا ترغب، وعليهم أن يتحملوا وزر فعلتهم ..

ولكن ما نوع تلك اللقاءات المتكررة بين جميل وبثينة؟ هل كانت لقاءات بريئة كما يؤكد بعض الرواة؟! ولكن كيف نصدق تلك الروايات وجميل نفسه يؤكد لنا في أشعاره أنه كان يقضى الليل كله بصحبة بثينة. مضطجعا بجوارها، أحيانا لمدة ثلاث ليال!! فإذا ما أسفر الصبح أو كاد تشفق بثينة عليه، وتلح عليه أن ينصرف فيأبى معتزاً بسيفه وسهامه ولكنها تلح حتى ينصرف..!

ونتابع أخبارهما ..!

تقول لنا الروايات أنهما اضطجعا ذات مرة فأخذهما النوم، وفي الصباح جاء غلام لزوجها يحمل إليها اللبن فرأى جميل بجوارها، فأصابه الفزع فجرى لينبئ سيده، وفي طريقه إلتقى بواحدة من صاحبات بثينة عرفت منه الحكاية، فأسرعت تحذر صاحبتها، ودخلت على العاشقين فحذرتهما، واستطاعت وبثينة أن تقنعا جميلاً فنام (!!) ووضعتا عليه من الوسائد والفرش ما أخفاه. واضطجعت صاحبة بثينة إلى جانبها وتظاهرت بالنوم ... فلما أقبل زوج بثينة وأبوها وأخوها لم يروا جميلاً بل رأوا المرأتين فانصرفوا خجلين وقضى جميل يومه مع بثينة!!

وحكايات بثينة مع جميل كثيرة، وهى تجعلنا نتوقف لنتساءل أى نوع من النساء كانت؟! هل كانت تحبه حقا، أم أنها كانت أكثر ولعا بأشعاره عنها التى ذاع صيتها حتى وصل الى أولي الأمر من بنى أمية؟!

ولنرى كيف يصفها والد جميل، وهو يحاول أن ينصحه بالابتعاد عنها: "يابنى حتى متى أنت عمه في ضلالك لا تأنف

من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنـت عنها بمعزل. ثم تقوم إليك فتغرك بخداعها وتريك الصفاء والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها، فيكون قولها لك تعليلاً وغروراً. فإذا انصرفت عنك عادت إلى بعلها على حالتها المبذولة".

بعض الروايات تؤكد ان جميلاً كان مستهتراً ماجناً، وبعضها الآخر يؤكد انه كان عاشقا مدلها، نصحه أهله بالابتعاد عن امرأة متزوجة، وهددوه بأن يتبرأوا منه، ولكنه لم يستطع ان يبرأ من حبه لبثينة.

ويروى أن رجلا احتال على جميل كي ينسيه حبه لبثينة فزين له سبع بنات، فكن يتصدين له متبرجات ويحاولن التقرب منه، ولكنه فطن للحيلة، وصد عنهن جميعاً.

وراح ينشد:

أيا ريح الشمال أما تريني
أهيم وأنني بادي النحول

هبي لي نسمة من ريح بثن
ومني بالهبوب إلى جميل

وقولي يـــابثينــــة حسـب نفــــس

قليــلك أو أقـــل مــــن القليـــل

سوتروى الروايات أن أهل بثينة شكوا جميلا إلـى الخليفـة فأهدر دمه، واستدعى بثينة ليسألها فكـان بينهمـا مـزاح! ويسـمع جميل بأمر أهدار دمه، فيفر إلى اليمن ويلبث بها فترة، ثم يعـود ليجد أن أهل بثينـة قـد رحلـوا إلـى الشـام. ولايثنيـه ذلـك عـن عزيمته، فيرحل وراءهـم وهنـاك يلتقـي ببثينـة عدة مـرات، ثـم يصيبه اليأس أخيراً فيشد رحاله إلى مصر، ويظل بها فترة يبكي حبه، وينشد الاشعار في الحنين إلى أيامه مـع بثينـة وشـوقه لهـا حتى يموت بمصر.

لقد شك الدكتور طه حسين في قصة جميل وبثينة، ونعتهـا بـــأنها متكلفـة منحولـة، وأنهـا تخلومـن النفـع والفـائدة وتنــاقض الحب العذرى.

أما سلامة موسى فقد كتب يقول: ان جميــلا مـن الشـعراء الذين يمتازون بصدق اللهجة والاحساس، وأن نسـيبه يعـبر عـن عاطفة صادقة لا رياء فيها ...

كثير .. العاشق العربيد

حكاية اخرى حدثت في القرن الهجري الأول .. أى في صدر الاسلام، تلك حكاية كثير وعزة. كان كثير شاعرا كبيرا يقارن بجرير والاخطل والفرزدق. ذات يوم كان يرعى بغنمه. فمر على مجموعة من النسوة، أرسلن إليه فتاة صغيرة لتطلب منه أن يبعهن كبشا، ويأتمنهن على ثمنه حتى الغد. نظر كثير إلى الفتاة الصغيرة فسحرته عيناها، ومن أجل خاطرها قبل الصفقة. وأعطاها الكبش ثم مضى في طريقه. عند عودته التقى كثير بالنسوة، فأرسلن إليه ثمن الكبش مع احداهن، فراح يسألها عن الصبية التى جاءته في المرة السابقة وعرف اسمها، عزة. وصار يتغنى بها. وكما يحدث لكل العشاق، فكر كثير في الاقتران بحبيبة القلب، ولكن المحظور كان قد وقع .. لقد وصل أمر تشببه بها إلى أهلها، فرفضوا، على عادة العرب أن

يزوجوها له. أما عزة فكان لها شأن آخر، لقد أحبت كثيراً، ورضيت أن تلتقي به سراً. وكان كثير يروي قصص لقاءاتهما في أشعاره، وأكثر من ذلك حتى أن البعض تشكك في صحتها، وتشكك آخرون في إخلاصه لعزة. ومما رواه كثير، ويشبه الاعتراف، أنه سار ذات يوم خلف امرأة منقبة تميس في مشيتها، وظل يطاردها ويطالبها ان تتوقف وتتحدث معه وتعرفه بنفسها. قالت المرأة المنقبة: ويحك! هل تركت عزة فيك بقية لأحد؟! أجاب كثير: بأبي أنت، والله لو إن عزة أمة لي لوهبتها لك.

عندئذٍ أسفرت المرأة عن وجهها، وكانت المفاجأة المذهلة:

إنها هي عزة بدمها ولحمها!

ويقول كثيراً لخلانه إنه ندم

أشد الندم وراح ينشد:

ألا ليتنى قبل الذي قلت شيب لي

عن السم خضخاض بماء الذراح

أقسمت ولم تعلم على خيانة

وكم طالب للربح ليس برابح

ذو الرمة عاشق الصحراء

لايمنع الحذر من قدر ..

وقدر الرجل والمرأة أن يكون بينهما مودة ورحمة .. فكل منهما، عندما يبحث عن الآخر، ويشتاق إليه ويسعى بكل ما يملك من مقدرة إلى لقائه .. إنما يشتاق ويسعى ويبحث عن .. المودة والرحمة ..

قدرهما اذن، أن يلتقيا، ولا يمكن أن تتحقق المودة إلا بالحب، ولا تكون الرحمة إلا مع التعارف والتآلف ..

وقصص الحب في صدر الاسلام، كما وصلت لنا، تؤكد تلك المعانى، وتضيف معلومة هامة، وهى أن الاسلام في بداية

عهده لم يكن حائلا بين الرجل والمرأة، ولم يصنع سدا منيعا ليفرقهما، ويحول بين تحقيق ما قدره الله لهما .. المودة والرحمة ..

ودرجات المودة تتعدد .. حتى تصل إلى الحب أسمى عاطفة يتميز بها بنو آدم وحواء .. على سائر مخلوقات الكون..

ولاشك أن الحب هو الذى جعل الانسان يتطور، فهو في سعي دائم إلى الأفضل والأجمل .. أى إلى المثل الأعلى ..

وكلما برح به الشوق، فاضت من عقله وقلبه الافكار والخيالات، وأنجبت قريحته الفنون والآداب ..

وهكذا فعل صاحبنا .. الشاعر الاموي الكبير ذو الرمة .. عاشق مي .. والصحراء ..

في طفولته كان ذو الرمة الذي ولد أثناء خلافة عبد الملك بن مروان (عام ٧٧ أو ٧٨هـ) طفلا مختلفا عن بقية أطفال القبيلة، احتارت فيه أمه فذهبت به إلى أحد مقرئى القرآن بالقبيلة كي يكتب له معاذة تعلقها في عنقه لتحميه من الجن والوسوسة.

ولم يكن الصبى مجنونا ولا موسوسا .. وإنما كان مشروع شاعر عبقري، سيملأ الدنيا فيما بعد أشعارا جميلة يعبر بها عن رؤاه وخيالاته. كان عاشقا للصحراء كلف بها وراح يتأملها ويصف كل شئ فيها.

وفي الصحراء تقرر مصيره ..

وفي الصحراء كان لقاؤه القدرى مع الفتاة التى سيظل يحبها ويتشبب بها ويتطلع إلى لقائها العمر كله ..

كان ذو الرمة بدويا .. وكانت مى، أو مية كما يناديها أحيانا، بدوية أيضا ..

ولابد ان في المرأة البدوية سحر خاص، يجذب الرجال إليها، ويظل ساكنا في قلوبهم لا يبرحها، مهما بعدوا عنها .. هكذا كان حال قيس، وحال كثير وحال جميل .. وأيضا حال ذى الرمة بطل قصتنا هذه ..

ثلاثة شبان، ذو الرمة وشقيق له وابن عمه، خرجوا يضربون في الفلاة بحثا عن ابل ضلت من قبيلتهم، فتوغلوا في

المناطق الجنوبية من اليمامـة، حتـى وصلـوا إلـى الدهنـاء حيـث كانت غشيرة منقر تنزل ..

وهـنـاك شـعـر الشبـان الثلاثـة بالعطـش، فأرسلـوا أصغـرهم - ذا الرمة - إلـى الخيـام القريبـة ليطلب السـقيا .. اقترب ذو الرمة من الخيام، فرأى فتاة مليحة تنحنـى فـوق ثـوب تنسجه، وسمعها تنشد أبياتا من الزجل:

يـامـن يـرى بـرقـا يمر حينا

زمـزم رعـدا وانتحـى يميـنـا

كـان فـي حـافـاتـه حنيـنـا

أو صـوت خـيل ضمـر يردينـا

توقف البدوي الأسمر يتأمل البدوية الحسناء ذاهـلاً، لكنهـا أحست به، فرفعت إليه عينيها متسائلة.

وفي تلك اللحظة بالذات سطر القدر مصـير شـاعر أمـوى فذ. جاء ليروى ظمأه إلى الماء، فإذا بفتاة تصيب قلبه بظمأ إلـى لقائها لا يرتوى.

من هى مى ... ؟!

تلك هى مية، حفيدة الشاعر قيس بن عاصم الذى أطلق عليه الرسول (ص) لقب سيد آل الوبر، ويقال إنه كان ملكا غير متوج على البادية. عاش فترة في الجاهلية ثم أدرك الاسلام.

قدمت مي الماء إلى البدوى الشاب وهي تقول ساخرة "اشرب ياذا الرمة" لأنها لمحت المعاذة التى علقتها أمه في عنقه بحبل صار باليا.

فكأنما الشعر قد صار نبضات قلب شاعرنا، لايتوقف إلا عندما يسكن ذلك القلب ويهدأ إلى الأبد.

كان ذو الرمة مثل كل شاب في سنه يتطلع إلى الحب ويبحث عنه في عيون من التقى بهن من النساء، ولكنه عندما رأى مية أدرك أنه عثر على ضالته أخيرا، وراح ينشد الاشعار تشببا بها، ويسعى إلى لقائها ليروي اشواقه فيزيد من اضطرام نار عواطفه.

وهو في كل الأحوال يظل وفيا لمدرسة البادية في الحب. ذلك الحب العذري الذى لا تشوبه رغبات حسية والذى لا يأمل فيه العاشق سوى في نظرة من محبوبته، وقد يطمح إلى حوار قصير تبادله فيه الشعر، وهو دائما شعر جميل على مستوى ما

ينظم الشاعر نفسه، مما يجعلنا نظن بأنه هو الذى كان ينظم ذلك الشعر نيابة عنها، فيكفيه أنهـا هـى التـى أوحـت بـه إليـه، وأنهـا ألهمته تلك الأبيات لكى ينسبها إليها.

وعلى الرغم من ذلك البكاء الحار الذى يشيع فـي أشـعار ذى الرمة، وتلك الدمـوع الغزيـرة التـى نجده يذرفهـا علـى مـي وعلى حبه لها؛ وفراقها الذى يدمي قلبه على مدى ستة وخمسين قصيدة طويلة كرسها لمية وحدها. فإننـا عندمـا نستعيد قـراءة أخبارهما معا يدهشنا تلك الحرية التى كانت امرأة الباديـة تتمتـع بها في صدر الاسلام.

يقول ذو الرمة في إحدى قصائده:

بكيـت علـى مـي بـهـا إذ عـرفتها

وهجت الهوى حتى بكى القوم من أجلي

فظلـوا ومنـهم دمعـه غـالـب لـه

وآخـر يثنـى عبـرة العيـن بالهمـل

وهل همـلان العين راجع مامضى

من الوجد أو مدنيـك يامى مـن أهلـى

أقول، وقــد طال التنــائي ولبست

أمور بنــا أسبــاب شغـل إلـى الشغــــل

ألا لا أبالـــــى المــوت إن كان قبله

لقـــاء بمــي وارتجــاع مــن الوصــــل

ان موضوع الحب ليس سراً، فالشاعر يعلن حبه على الملأ ويبكي على مي حبيبته، فيبكي معه من يسمعه ويظلون يبكون ويذرفون الدموع ويتنهدون حزنا على ذلك الشاعر الذي يعاني من الحرمان ومن اليأس، ويتمنى الموت إذا كان سيسبقه لقاء مي واستعادة وصالها.

ان العاشق الولهان لا يكتفي بترديد الشعر حول حبيبته بل يظل يحوم حول ديارها، ومعه اصحابه، على أمل أن يلتقى بها ويستعيد ذلك الحوار العذب الذي يشتاق إليه معها. ويروي أحد أصحابه قصة واحدة من تلك المحاولات عندما أتى اليه راغبا في استعارة واحدة من ابله، لايتعرف على آثارها أحد من أهل مية ويركبان معا ناقة تسمى الجؤذر حتى يقتربان من منزل مي فيتمهلان، ويراهما النساء فيخبرن مي بقدوم حبيبها، وتسعى

احداهن الى عقد مجلس في بيتها ليجتمعوا به كلهم، وتطلب الى الشاعر أن ينشدهن بعض أشعاره عن مي فيطلب من صاحبه أن ينشدهن احدى قصائده:

نظرت إلى أظعان مي كأنها
ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه

فأسبلت العينان والصدر كاتم
بمغرورق نمت عليه سواكبه

بكى وامق حان الفراق ولم تجل
جوائلها أسراره ومعاتبه

ويتكرر اللقاء، لقاء عفيف، يشهده أصحابه وأصحابها، ويستمع فيه الجميع الى اشعار ذى الرمة، ويتبادل الجميع بعض المزاح، ثم يبتعدوا جميعا ليتيحا خلوة بريئة للعاشقين، يبثان فيها أشواقهما ثم يتبادلان الهدايا: هو - يهديها الاشعار وهى تهديه الطيب (العطر) .. ومع تطور العلاقة يفكر ذو الرمة في خطبة مي لنفسه فيصارح أخاه هشام بذلك، ولكن الأخ الأكبر لايتحمس كثيراً لفكرة الزواج ممن هي أرقى في السلم الاجتماعى. فحتى

في البادية والجميع يعيشون في الخيام ويتنقلون بـالابل والمـاعز لرعـي الكـلأ، كـانت هنـاك طبقـات اجتماعيـة .. وكـان لـلزواج مراسم ونفقات باهظة لايقدر عليها فتى يتيم مثل ذو الرمة ..

ويصبح على الفتى العاشق أن يغترب بحثا عن المال، فلا حل أمامه سوى الارتحال الى العـراق ومـدح الأمـراء والحكـام، كـما كـان كل الشعراء في عصره يفعلون، ليحصل على بعض المال.

فهل صرح ذو الرمة بخطته لمـى؟! هل شـاركها التفكير في حل لأزمته؟! هـل قـرر معهـا أين سـيذهب ومتـى سـيعود؟! لاأعتقد ذلك، وإنما كأى فتى في العقد الثاني من عمره لابـد وأن الغضب من أخيه قد أعمـاه فقفـز فـوق فرسـته أو ناقتـه وانطلـق لايلوى على شئ.

ولابد أن ميا ظلت تنتظر، فـلا أحد يروى لنـا شـيئا عـن مشاعرها أثناء غياب ذى الرمة .. ولكننا نتصور معا وضع تلك الفتاة المسكينة التى ظهر واضحـا جليـا أنهـا أحبته وأنهـا كـانت تكذب نفسـها وتكذبـه ولا تصدق أنـه يمكـن أن يحبهـا كـل ذلـك

الحب. وانها كانت تمنحه من وقتها واهتمامها وهداياها ما يكفل لتلك العاطفة الرائعة أن تنمو وتستمر، فالاخبار القليلة جدا عن مى، التى ظل ذو الرمة يتشبب بها حتى آخر يوم في حياته تقول أنها كانت امرأة جميلة ذلك الجمال الباقي .. جمال الروح، فهى مثقفة واعية على درجة من عفة النفس والكبرياء، بحيث أن ذكراها لم تبرح خيال الشاعر لحظة، حتى بعد أن باعدت الأيام بينهما.

لقد علقت مي بقلبي علاقة

بطيئا على مر الشهور انحلالها

إذا قلت يجرى الود أو قلت ينبرى

لها الجود يأبى بخلها واعتدالها

على أن ميا لاأرى كبلائها

من البخل ثم البخل يرجى نوالها

ولم ينسنى ميا تراخى مزارها

وصرف الليالي مرها وانفتالها

على أن أدنى العهد بينى وبينها

تقادم إلا أن يزور خيالها

طالت غيبة ذى الرمة عن مى، وعن البادية ولم تكن في ذلك الوقت وسائل اتصال كالبريد والهاتف تبرد نار العاشقة أوتمنحها القوة والصبر وتجعلها تصبر على الانتظار، مهما طال. والأهل لا يصبرون كثيرا على بناتهم، خصوصا إذا ما تقدم واحد من أبناء العم لخطبتها. ولابد أنه القدر ذلك الذى يصر على أن تنتهى قصص الحب العظيمة كلها نهاية مؤسفة: الفراق. كأنه شرط من شروط الخلود لولاه تهمد العاطفة وتذوب مع الايام وتنطفئ شرارتها.

يعود ذو الرمة بعد غيبة باحثا عن حبه القديم، ناشدا الوصل، ولكنه يجد أن ميا قد تزوجت من ابن عمها ورحلت عن البادية. تختفى عن ناظره، لكنها لا تبزح خياله لحظة .. حتى بعد أن يلتقى بامرأة أخرى تشغله بعض الشئ، تظل مي هاجسه الأبدي. فما هي حكاية المرأة الأخرى في حياة شاعر الحب والصحراء ذي الرمة ..؟!

وهل حكاية ذى الرمة ومي، حقيقة أم وهم وخيال صنعه بعض الشعراء ..!

وإذا كان ذو الرمة شاعراً حقيقياً هو غيلان بن عقبة بن بهيش بن مسعود، المولود عام ٧٧هـ لأب عدوي وأم أسدية ..

نجد أشعاره والروايات عنه مذكورة في كتب العرب التى تحكي تاريخهم القديم، ونجد من يعتبره واحداً من أهم شعراء العصر الأموى.

فماذا عن مية ..؟! وماذا عن خرقاء ..؟! اسمان يترددان كثيراً في أشعار ذى الرمة ولكن الشعراء العرب رددوا كثيراً من الأسماء لنساء لا حصر لهن.

وحكاية ذى الرمة مع مية، التى حكيناها تشبه كثيراً حكايات سبق وأن سمعناها ورددناها حول شعراء آخرين من شعراء الحب العذرى .. جميل وكثير وقيس وعروة ..

أما حكايته مع خرقاء - المرأة الثانية في حياته - فهي تختلف كثيراً، ليس في تفاصيل اللقاء فقط، وإنما في صفات خرقاء التى قرأناها في كتب " الأغانى " و"الأمالى" والشعر والشعراء لابن قتيبة وأخيراً كتاب الدكتور يوسف خليف أستاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة عن ذى الرمة شاعر الحب والصحراء.

وما يهمنا هو هذه النظرة الجديدة للمرأة التى سادت في صدر الإسلام ـ أى قبل أن يختلط الفكر الإسلامى بأفكار وعقائد وأعراف الحضارات التى كانت موجودة في ذلك العالم والديانات السائدة من مزوكية وزرادشتية .. إلخ، وكلها كانت تختلف في نظرتها للمرأة عن الفكر الإسلامى الجديد.

يقول د. يوسف خليف في كتابه عن "ذي الرمة" يوشك الأدب العربي أن يكون أغنى الآداب العالمية شعر حب، ولايكاد يعدل الغزل العربى أى غزل آخر كثرة شعراء، وتنوع تجارب، وتعدد مذاهب"

هذه حقيقة هامة لابد وأن نستنتج منها حب العربى ـ في ذلك الوقت ـ للمرأة واحترامه لها ورغبته العميقة في التواصل والحوار معها، فلا يمكن أن تفرد الأشعار المطولة في التغزل بشئ أو انسان تحتقره، ولا يمكن أن تشغف بالحوار إلا مع من هوند لك، يمتعك كثيراً أن تمنحه مشاعرك وأفكارك وأحلامك وتتلقى منه نفس الشئ.

وإذا كان هناك من يشكك في حكايات جميل وكثير وقيس فإن أحداً لم يشكك في حكاية ذي الرمة وولعه بمية، وإن اختلفوا

حول قصة لقائه الأول بها في بعض التفاصيل الصغيرة التي تدل على أن احداً قد زاد وأضاف أو غير بعض الأحداث ليزيد من إثارة الموضوع، المهم أن الروايات تلتقي جميعها في أن مية كانت فتاة بدوية، وأن ذي الرمة عجز عن تدبير مهرها فرحل بعيداً، ثم عاد فوجدها قد تزوجت.

وتقول الحكايات أن ذي الرمة صدم وحزن وهام على وجهه طويلا إلى أن التقى بإمرأة أخرى هي خرقاء، "وفي غمرة من غمرات اليأس والحرمان والإحساس بالضياع خيل إليه أنها هى التى تسليه عن مية، وتنسيه غرامها وتعوضه عن حبه الضائع".

فكيف التقى ذو الرمة بخرقاء؟!

نقرأ في "الأغانى" حكاية ظريفة تصلح لأن تكون سهرة تليفزيونية مسلية. فالشاعر الذي مازال مفتونا بغادته البدوية، يتوصل أخيراً إلى عنوانها الجديد.

ثم يتحين ليلة حالكة الظلام لكي ينزل ضيفا على زوجها، يفعل ذلك وهو متنكر، ولا نعرف لماذا يقبل الزوج استضافته ولماذا يفتح بيته لغريب ويكرمه، لكنها عادات العرب ومازلنا

في البادية، وقريبي عهد بالرسالة، لم تتعقد الحياة بعد، ولم تتعقد علاقات ونفوس الناس.

على أن غفلة الزوج لاتستمر طويلاً، فسرعان مايدرك الحيلة الماكرة، ويفطن إلى أن الضيف المتنكر ماهو إلا ذو الرمة، عاشق مية قبل زواجها منه، وشاعرها الذى تتناقل الأفواه قصائد تشببه بها في كل أرجاء البادية.

يسرع الزوج بطرد الشاعر العاشق من بيته، ملقياً حاجياته وراءه، تاركاً إياه في العراء.

ولا يجد ذو الرمة وسيلة ليخفف بها على نفسه ماحدث سوى أن يتوقف أمام البيت، ويغنى مردداً بيت شعر كان قد قاله في مي من قبل:

أراجعة يا مي أيامنا الألى

بذي الأثل أم لا ما لهن رجوع

ويسمع الزوج ذلك الغناء فتثور ثائرته ويتساءل في غضب عن معنى الكلام، وما الذى يعنيه ذو الرمة بقوله "أيامنا الألى بذي الأثل" فماذا حدث في تلك الأيام؟!

هكذا يصرخ في زوجته مي، ويطالبها بأن تقوم فتطرد ذا الرمة وتبعده عن المكان وإلا ضربها بالسيف.

وتفعل مي ماأراد زوجها، فيغضب ذو الرمة، وينهض إلى راحلته فيركبها وينصرف، وقد ألى على نفسه أن يقطع صلته بمي تماماً، وأن يفعل ما بوسعه لكي ينساها ويظل يسير على غير هدى حتى يصل إلى مكان ينزل به أهل خرقاء، ويتعرف إليها، وتعجبه فيقول فيها الشعر.

وهناك حكايات أخرى حول لقاء ذي الرمة بخرقاء، فتاته الثانية بعد مي، لكن هذه أقربها جميعاً إلى العقل. فالحكايات الأخرى تزعم أن ذا الرمة لم يحب خرقاء، بل لم يلتق بها إلا لماما، مما يجعل البعض يتساءل: أكانت خرقاء غير مية أم كانت هي مية نفسها ... هل خلق ذو الرمة شخصية وهمية أسماها خرقاء لكي يتشبب بها، فيذيع شعره عنها ويصل إلى مية، ويغيظها ..؟!

أم أن خرقاء اسم وهمى، اخترعه ذو الرمة لكى يطلق العنان لأشعاره في حب مية دون خوف من أذى زوجها، ودون اساءة لها ..!!

ويجيئب د. يوسف خليف، الذي أمضى عشرين عاماً يدرس أشعار ذي الرمة ويجمع حكاياته:

إن من ينظر في شعر ذي الرمة يلاحظ أنه يفرد أحياناً قصائد لمية، وأحياناً لخرقاء، واحيانا أخرى يجمع بينهما ويتحدث عنهما معاً، ويخرج من هذا بخلاصة: أن "مية (كانت) المحبوبة الأولى، وخرقاء المحبوبة الأخرى. وهو حديث من الصراحة بحيث يصبح الجدل حول هذه المسألة ضرباً من المراء لا معنى له. فخرقاء غير مية، فخرقاء عامرية، ومية منقرية، وبنو عامر ينزلون اليمامة، وبنو منقر ينزلون الدهناء، وكلتاهما شخصية حقيقية. وإذا كانت مية في أواخر حياة ذى الرمة الأمل الضائع أو الفردوس المفقود الذي أفلت من بين يديه إلى الابد، فقد كانت خرقاء في هذه المرحلة من حياته الامل المنتظر الذي تراءى له في ظلمات يأسه والفردوس المنشود الذي ضمه بعد ضياع."

ما يهمنا بعد ذلك تلك الصفات التى نعتت بها خرقاء، وأغلب الاحاديث عنها متواترة يؤيد بعضها بعضاً.

فيقولون انها كانت بدوية أصيلة، تروى الشعر وتنظمه، وتعرف أنساب العرب وأخبارهم معرفة دقيقة.

تلك إذن صورة المرأة التي يمكن أن تكون عزاء للرجل إذا ما صدم في عاطفة قوية. امرأة ذات عقل وروح وليست مجرد دمية جميلة تفتنه بتقاطيعها الجذابة أو صوتها الشجى أو..أو. ونكتشف ذلك ونحن نطالع اشعاره عن خرقاء .. لقد اختفى منها ذلك الصراع الحاد بين الروح والجسد الذى كان يسري في أشعاره عن مي، هناك فارق السن بين شاعر مية وشاعر خرقاء .. هو الآن قد غادر سنوات الشباب المبكر وأضحى يقترب من الاربعين ..

وهناك فارق السن ايضاً بين مي الفتاة الصغيرة، وخرقاء المرأة الناضجة التى كانت تكبره في السن، التى تفهمه وتعطيه حق قدره وتعطف عليه وتحاول أن تساعده كي يتخطى أزمته العاطفية. إنها تعرف أمر مية، وتردد أشعار ذى الرمة عنها، لكنها لاتشعر بالغيرة منها، حتى عندما يقول الشاعر أشعاراً جديدة يظهر فيها بوضوح أن جرحه القديم لم يندمل وحبه لمية حبا ينبض ويوخز ويلهم بالمزيد من الاشعار. ويقول د. خليف:

"ان كل من ينظر في أحاديثها عنه وفي شعرها الذي قالته فيه يشعر شعوراً عميقاً بأنها كانت تحمل له في نفسها شيئاً أكثر من الحب .. هو ذلك المزج الصافي العميق من الحب والأمومة"

"الصّـــمة"

رومـــيو العــرب

الصمــة القشــيري، عاشـق آخـر مـن الذيــن ذاع صيتهــم، وتناقلت الأفواه حكاياتهم في صدر الاسلام.

ومثل أغلب عشاق ذلك الزمن نجد أن الصمة كان بدوياً، أى أنه ولد ونشأ وترعـرع فـي الصحـراء، ولابـد أن للصحـراء ذلك التأثير السحرى علــى القلـوب. يشـب الفتـى، ويشـتد عـوده، وتستيقظ حواسه فيمد البصر حوله فلا تحده حـدود، لاشـئ علـى الاطـلاق يمنـع الخيـال مـن أن يحلـق عاليــاً، ويرمــح كــالفرس الجامح في كل اتجـاه.

وعندما يرخـى الليل أستاره، وينسحب آخر ضوء للشمس، تبرق الأماني في سمـاء الحياة، وتعربد في القلب أشواق طبيعية، بثهـا الخـالق فـي قلـوب البشـر، ليبحثـوا دومـا، وبـلا كلـل، عـن مصدر للمودة والرحمة ..

وتتكرر قصة روميو وجوليت ولكن على الطريقة العربية فالصمة كان ينتمى إلى عائلة ثرية، وكثيرا مايرتبط الثراء بالشح والطمع. ولابد أن والد الصمة كان شحيحاً، بينما كان عمه طماعاً ولذلك نشأت بينهما .. عداوة ما، كان الصمة وحبيبته ضحيتين لها.

وكما حدث في أغلب حكايات العشق البدوي في العصر الأموى، تطلع فتانا حوله فلم يجد سوى ريا بنت عمه فهام بها حبا، وما أن شب عن الطوق حتى تقدم إلى عمه راغبا في خطبتها. ويبدو أن العم كان يدرك أن هذا اليوم سيأتى حتما، وكان يتحين الفرص لينتقم من أخيه، لسبب ما. وبدلا من أن يرحب بابن أخيه ويوافق على الخطبة فوراً، راح يطلب مهراً غاليا لابنته، ويحدد عدد الابل المطلوبة لاتنقص ولاتزيد، بل ونوعها أيضاً.

ويقال إن الصمة لجأ إلى أبيه ليحصل منه على ذلك المهر، لكن الأب رفض، فلم ييأس العاشق الولهان ولجأ إلى عشيرته طالبا المدد، فعاونوه، أى جمعوا من بعضهم الابل

المطلوبة. وفي حكاية أخرى أن الأب وافق بعد الحاح وأعطى ابنه المهر المطلوب وذهب الصمة إلى عمه، والفرحة لا تسعه.

لقد حقق أخيراً، وبطريقة ما، المطلب الصعب، وبقي أن يفوز ببنت عمه لتشاركه حياته ويعيشان في التبات والنبات كما تنتهى دائما الحكايات.

ولكن يبدو أن العرب في صدر الإسلام كانوا على وعي بأن زواج الأقارب ظاهرة غير صحية، ينتج عنها أن يرث الأبناء الأمراض المزمنة بالعائلة، لذلك كانوا يضعون العراقيل في طريق كل من يحب بنت عمه ويسعى للزواج منها ..

أو لعلهم كانوا يعشقون الشعر، ويسعون بكل ماأوتوا من جهد إلى قدح زناد الشاعر، واثارة قريحته، حتى يفرز لهم المزيد من الرحيق لينشدوه ويتغنوا به.

ولولا الشعر ما وصلتنا حكايات الحب في صدر الإسلام فلأنهم كانوا شعراء، وكانوا موهوبين ولأن الناس أحبت أشعارهم وحفظوها ورددوها ثم لحنوها وغنوها، فخلدوها ويحكي لنا أبو الفرج الاصفهانى في كتابه الخالد "الأغانى" أن

الصمة لما ذهب إلى عمه بالأبل فوجئ به يتأملهـا مسـتنكرا، ثـم يطلب منه أن يعود إلى أبيه ليبدل بعضها، ففعل راجعاً إلى أبيـه وطلب منه ذلك لكن الأب رفض بشدة.

وتـأمل وضـع هذيـن الاخويـن اللذيـن لا يتبـادلان الكـلام، وإنما يبعث كل منهمـا برسـالته عـن طريـق العاشـق المسـكين، وكأنـهما جعلا منه كرة يتقاذفانها، غير عابئين بما يمتلئ بـه مـن مشاعر وأحاسيس.

وطبيعـى أن يكتشـف الصمـة ذلـك الوضـع المهيـن الـذي صـار إليه، وأن يثور، وأن تصدر عنـه كلمات نابية لكل من عمه وأبيه، ويتملكه الغضـب العـارم، فيقطـع عُقُـل الابـل، ويسـرحها لتعود إلىأصحابها، وتستبد به نوبة الغضب، فـيرحل بعيداً عـن الحى الذي تعيش فيه قبيلته قاصداً أحد الثغـور، وهـناك تـهدأ ثـائـرتـه ويفـكر فـي الامـر ملـياً، ويشعر بـالندم فيعود إلى قومه.

وكما يحدث في أغلب قصص الحـب فـي صـدر الإسـلام، تغيب عنا أخبار المرأة المحبوبة التى تدور حولها كـل الحكايـة،

كل مَا نعرفه عنها أنها كانت تدعى العامرية، وأن الصمة كان يذكرها في كل أشعاره القليلة التى خلدهاأبو الفرج وأنها كانت بنت عم له.

أما موقف ريا من الصمة، وهل كانت تحبه بقدر ما كان يحبها، وترغب فيه بقدر ما يرغب فيها، فهذا مالا يصل إلينا. نقرأ فقط أنها حين رأته راحلاً قالت:

"تالله ما رأيت كاليوم رجلا باعته عشيرته بأبعرة" أى أنها لم تصرخ ولم تلحق به، ولم تطالبه بأن يصبر ويفكر في وسيلة للتغلب علي والده ووالدها، بل كلماتها تدل على أنها لم تكن ترى أن والدها قد أخطأ.

ويعود الصمة فماذا يجد؟!

يجد أن عمه قد زوج ريا من رجل قصير يدعى عامر بن بشر، ولعل عامرا ما كان قبيحاً ولا قصيراً، ولكنه بدا كذلك، في عين العاشق الولهان، وهكذا صوره في شعره قائلاً يخاطب أهلها:

فـان تنكحـوهـا عـامراً لاطـلاعكـم

إليه يدهـد هكـم بـرجليـه عـامـر

وتختفى أخبار العامرية، فلا نعرف هل وفقت في زواجهـا أم لم توفق أما الصمة فقد زوجه أهله من امرأة تدعى جبرة بنت وحش، وذلك على أمل أن ينسى حبه لريا، ولكن جـبرة هـذه لـم تجبر خاطره ولا استطاعت ان تمـلأ فـؤاده أو تـبرأه مـن علتـه، فـــإذا هو يضيق بالإقامة معها، ويهجرها بعـد فـترة راحـلاً إلـى الشام قائلاً لها:

كلـي التمر حتى تهرم النخل واضفري

خطامك ما تدرين ما الـــيوم من أمس

ولا شـــك أن حبيبـــته ريـــا قد تناهى إلى سـمعها مـا قـال فيها الصمة، وغناه اسحق:

ألا تسـألان اللـه أن يسقـــى الحمـى

بـــــلا فسقـــى اللـه والحمـى والمطـاليـا

واسـأل من لاقيت هـــل مطـــر الحمـــى

فهـــــل يســألـن عنى الحمى كيف حاليا

انه يسأل بشغف عن المكان الذى تعيش فيه حبيبته، ويدعو الله أن يسقيه بالمطر وهو الرياض التى تحيط به، ثم يتساءل في حسرة: هل يسأل عن الحمى أيضاً، وهل يهمه أن يعرف كيف حالى..!

وفي قصيدة أخرى أنشدتها المغنية قرشية الزرقاء يقول:

واذكر أيام الحمى ثم انثنى

على كبدى من خشية أن تصدعا

فليست عشيات الحمة برواجع

عليك ولكن خل عينيك تدمعا

ان ذكرى أيام الحب، وما جرى فيها، لاتريد أن تبرح خياله حتى ليكاد كبده أن يتمزق حزناً وحسرة، وهو يعلم أن تلك الأيام الجميلة لن تعود ابداً، ومع ذلك يترك العنان لدموعه، علّ البكاء يفيده.

وقيل إن الصمة كان يجلس وحده ويبكى مخاطباً نفسه:

"لا والله ما صدقتك فيما قالت" فمر عليه رجل وسأله: من تعنى؟ ويحك! أجننت؟! قال: أعنى التى أقول فيها:

أما وجلال الله لـو تـــذكرينني

كذكريك ما كفكفت للعيـن مـدمعا

فقــــالـــت بلى والله ذكرا لو أنه

يصب علـــى هـــم الصفا لتصدعا

أى أن الدموع التى تنهمر من عينيها كلما ذكرته لـو أنهـا صبت على جبل لتصدع. فهى تؤكد له أنها تذكره كمـا يذكرهـا، وبقدر ما يبكي على فراقها تبكى على فراقه.

فهل يعني ذلـك أن الصمـة كـان يلتقـى بحبيبتـه ريـا، بعد فراقهما، وأنه كان يبثها لواعج قلبه، ويحصـل منهـا علـى تـأكيد باستمرار حبها له، وتذكرها أيامـه! هكذا تقـول الابيـات ويقـول كلامه لنفسه إنه يشك فـي صدقهـا، فهـي قـالت لـه كلامـاً ولكنـه لايصدق ماقالته.

أما باقي الحكاية التى يرويها صاحب الاغانى عن الصمـة فتقول إنه اضـاف بعد البيتين:

"أسلى نفسى عنها وأخبرها انها لو ذكرتنى كما قالت كانت في مثل حالى". أى أنه ينكر ما جاء بها في البيتين ينسب ما فيهما للخيال. فهما حديث النفس للنفس.

ويظل الصمة على هذا الحال، تكاد الحسرة أن تقتله، والشوق إلى حبيبته وابنة عمه ريا يستبد به، فيقرض الشعر، ويتلقفه المغنون يلحنونه ومنهم المغنية متيم الهاشمية التى غنت له:

فوا حسرتى لم أقض منك لبانة

ولم أتمتع بالجوار وبالقرب

يقولون هذا آخر العهد منهم

فقلت وهذا آخر العهد من قلبى

ومن أحلى ما قال في ريا:

جئت إلى ريا ونفسك باعدت

مزارك من ريا وشعباكما معا

فما حسن أن تأتي الامر طائعا

وتجزع أن راعى الصبابة اسمعا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها

عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

هكذا عاش ذلك الشاعر ينفس عن مكنون قلبه بالشعر حتى آخر يوم في حياته، فقيل ان رجلاً كبير السن من أهل طبرستان عثر عليه ذات يوم مطروحا على الأرض في بستان، فدنى منه وسمعه يقول بصوت خفي:

تعز بصبر لا وجدك لا ترى

بشام الحمى اخرى الليالي الفواير

كأن فؤادي من تذكره الحمى

وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

قال الرجل:

فما زال يردد هذين البيتين حتى فاضت روحه، فسألت عنه فقيل لي:

هذا الصمة بن عبد الله القشيري.

فهل سكب الصمة حياته قطرة حسرة على ريا، أم ندما على هجرة بلدته، أم حزنا على أهله الذين فرقتهم الخلافات وفرقهم الشح والطمع!

دون جوان بني قشير وحبيبته وحشية

يزيد بن الطثرية، هكذا كانت شهرته فهو منسوب إلى أمه، وكانت من طثر، في اليمن، ومع ذلك فقد زعم بعض البصريين أنها لقبت بالطثرية لولعها بإخراج زبد اللبن، وتسمى طثرة اللبن فسميت بالطثرية.

أما يزيد فهو بن الصيمة من بني قشير وقد اشتهر بحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه، ولذلك لقب بالمودق، وهو من إذا جلس بين النساء ودقهن أي فتنهن بجماله وحلاوة حديثه..

كان يزيد بن الطثرية صاحب غزل ومحادثة للنساء، وكان ظريفا من أحسن الناس كلهم شعراً، وكان أخوه "ثور"

سيداً كثير المال والنخل والرقيق، وكان متنسكا كثير الحج والصدقة كثير الملازمة لابله ونخله، فلا يكاد يلم بالحي إلا قليلا وكانت ابله ترد مع الرعاء على اخيه يزيد بن الطثرية فتسقى على عينه، وحدث ذات يوم أن مر يزيد بإبل أخيه بعد أن انتهت من السقيا، فمر بخيمة كانت بها بعض النسوة، فلما رأينه قلن: يا يزيد أطعمنا لحما، فقال اعطينني سكيناً فأعطينه، ونحر لهن ناقة من ابل أخيه، وبلغ الخبر أخاه فغضب بشدة وشتمه وجذبه من شعره فما كان من يزيد إلا ان أجاب بقصيدة شعر شرح فيها وجهة نظره.

وكان ثور اخاه الأكبر ويبدو أنه كان يحبه ويصبر عليه لأنه قال فيه:

نغير على ثور وثور يسرنا

وثور علينا في الحياة صبور

وذلك دأبى ما حييت وما مشى

لثور على عفر التراب بعير

ولم يكن الأمر يقتصر على الجود من مال ثور، بل كان يزيد متلافاً يكثر من الاستدانة، فإذا أخذ بالدين قضاه عنه أخوه ثور. وذات مرة كثرت عليه الديون لأحد الأشخاص وعجز عن الوفاء بها فهرب منه، ولكنه اضطر للعودة لكي يلتقى بفتاة كان يحبها وتدعى أسماء، وكانت جارة ذلك الرجل الذى استدان منه يزيد وهرب، ويبدو أن الرجل رآه فأمسك به وذهب به إلى الحاكم، وكان يدعى عقبة بن شريك فقضى بايداعه السجن، وظل يزيد في السجن فترة ولكنه ضاق به وراح يفكر في حيلة للهرب منه، وكان لعقبة بن شريك ناقة فتحايل يزيد على السجان بأن يتركه ليلة ليزور ابن عمه، وهناك استطاع ان يحصل على ناقة عقبة بن شريك فركبها وسار بها حتى وصل إلى عقبة نفسه، وأناخ بالناقة أمام بيته. وخرج عقبة من البيت ليجد يزيداً الذي كان قد سجنه راكباً ناقته. فلما نظر إليه عرفه وعرف الجمل فقال: ويحكَ! أيزيد أنت؟ قال نعم. وهذا ابن الكميت (الجمل)؟ قال: نعم. قال: ويحك! فما شأنك؟ قال: ياعقبة، فار منك إليك، وانشده قصيدة يطلب منه العفو فلان له عقبة وعفى عنه، بل وأهداه الجمل أيضاً.

حلاوة اللسان اذن لم تحبب النساء في يزيد بن الطثرية فقط بل والرجال ايضا. وكانت من عادة القبائل العربية أن تتزاور، رجالا ونساء ويجلس الجميع معا ليتحدثوا ويرووا الاخبار وينشد الشعراء شعرهم. وذات ليلة نزلت جماعة من بنى سدرة على بني قشير فأخذت فتيان بنى قشير، وبينهم يزيد، تترجل وتتزين وتزور بيوت سدرة، ولكن بعض رجال بنى سدرة نهوهم عن ذلك فقال يزيد بن الطثرية: وما في هذا عليكم! زوروا بيوتنا كما نزور بيوتكم، وقال:

دعوهن يتبعن الصبا وتبادلوا

بنا ليس بيننا بالتبادل

ثم أن رجال بنى سدرة قالوا لنسائهم: ويحكن فضحتننا! نأتىْ نساء هؤلاء فلا نقدر عليهن ويأتونكن فلا تحتجبن عنهم. فقالت كهلة منهن: مروا نساءكم يجتمعن إلى بيتي، فإذا جاءوا لم يجدوا امرأة إلا عندي. ولكن يزيد جاءها وتبادلا معا حوارا غلبها فيه، فلما أتاها القوم قالت لهم: إنه أتانى رجل لا تمتنع عليه امرأة. فإما أن تغمضوا له، وإما أن ترحلوا عن مكانكم هذا، فرحلوا وذهبوا.

ويبدو ان حكايات يزيد بن الطثرية من هذا النوع كثيرة، وهى تذكر لتدلل على ولعه بالحديث مع النساء. وافتتان النساء به وعجز الرجال عن فعل أى شئ لمنعه عنهن أو منعهن عنه. وهناك حادثة آخرى سجلها أبو الفرج الأصبهانى في كتابه تقول ان جماعة من جرم اضطرت للجوء الى بني قشير، مع انه كانت بينهم وبين بني قشير حرب عظيمة، إلا أن ظروف الجفاف والجدب في تلك السنة اضطرتهم إلى أن يستجيروا بأعدائهم. وعلى عادة العرب أجارتهم بنى قشير وساعدتهم وأرعتهم طرفا من بلادها. وكان بين أولئك الناس فتى يقال له مياد، وكان غزلا حسن الوجه تام القامة أخذ بقلوب النساء، والغزل في قبيلة جرم جائز حسن، ولكنه في قبيلة قشير قد يسبب العداوة والشحناء. فلما نزلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح مياد الجرمى يطلب الحديث مع نساء قشير، فدفعنه وأسمعنه ما يكره ثم اشتكينه لرجالهن الذين كانوا مشغولين بالسقى والرعية وما أشبه ذلك. وقالت بعض العجائز لرجال قشير: والله ما ندرى أرعيتهم جرما المرعى أم أرعيتموهم نساءكم!.

قرر بعض الرجال أن يعاتبوا القبيلة الضيفة كلها، ولكن بعض العقلاء رفضوا ذلك وقرروا أن يشتكوا ميادا لقبيلته حتى يعاقبوه هم. وما أن تحدثوا بما فعله مياد إلى رجال جرم حتى وجدوهم يقهقهون ويسخرون من جفاء القشيرين وعجرفتهم. وقالوا: إنكم لتحسون من نساءكم ببلاء، ألا فابعثوا الى بيوتنا رجلاً رجلاً. أى أنكم لا تثقون في نسائكم أما نحن فان نساءنا أمنع من أن يغريهن أحد. ولم يبتلع القشيريون الاهانة بل ردوا غاضبين: والله ما نحس من نسائنا ببلاء، وما نعرف منهن إلا العفة والكرم، ولكن فيكم الذي قلتم. عندئذ قال الجرميون: فلنبعث رجلا إلى بيوتكم يا بنى قشير وتبعثون رجلا إلى بيوتنا، ونتحالف انه لايتقدم رجل منكم أو منا الى زوجة أو اخت ولا بنت ولا يعلمها بشئ مما دار بيننا. ولكن على كل من الرجلين أن يأتى بدليل أو علامة على أنه قد تحدث الى امرأة وصادقها.

في اليوم الثانى خرج الرجال جميعا الى أعمالهم تاركين ميادا الجرمى بين القشيريات، ويزيد بن الطثرية القشيرى بين الجرميات. والنتيجة معروفة طبعا فقد انتصر يزيد انتصارا

ساحقا على الجرمـى، فأكرمتـه نسـاء جـرم وافتتـن بـه جميعهـن وقبض منـهن الـهدايا، وسألته كل واحدة الا يدخل من بيوت جـرم إلا بيتهـا ... ظـل هكـذا بينهـن حتـى العصـر، فـانصرف يزيـد ومعـه العديـد مـن الخواتـم والاسـاور والامشـاط والـبراقع مـن النسـاء الجـرمـيات، انصـرف مكحولا مدهونا "بالطيب" شبعان ريان مصفف الشعر .. إلخ.

أما مياد فتقول الحكاية انه ظل يدور بين بيوت القشيريات مرجوما مقصى لا يتقرب إلـى بيت إلا استقبلته الولائـد بـالعمد والجندل "أي بقضبان الحديد والحجارة".

وأنشد يزيد في ذلك قائلاً:

فـإن شئـت يا ميـاد زرنا وزرتم
ولـم ننفس الدنـيا علـى مـن يصيبها
ليذهـب ميـاد بالبـاب نسـوتـي
ونسـوة ميـاد صحيـح قلـوبهـا

لم يكـن يزيـد بـن الطثريـة مجـرد "دون جـوان" عربـى لا يهمه إلا غواية النساء، إنما كـان رجـلاً سـويا يـرى ان الدنيـا لا

تساوى شيئاً بلا حب، وان الحياة لا قيمة لها بدون رفقة المـرأة. أنا أشك اذن في كونه رجلاً عنينا كما أشاع عنه البعض، واعتقد انها كانت محاولة للاساءة إليه وتشويه سمعته من بعض الحاسدين، ولعلهم كانوا رجالا فضلت النساء يزيد عليهم، فلم يجدوا وسيلة للانتقام سوى تلطيخ سمعته والغاء رجولته. والدليل على ذلك أن يزيداً وقع في الحب وعشق امرأة من جرم التقى بها في نفس ذلك اليوم الذى حكينا عنه سابقا، وكانت تسمى وحشية، ويقول أبو الفرج أنها كانت من أحسن النساء، وأن جرم أبعدتها عنه فلم يجد إليها سبيلا، فصار من العشق إلى أن أشرف على الموت واشتد به الجهد وانه عرض على الاطباء، ولكنهم فشلوا في علاجه وأنه فكر بالانتحار. ولما حاور ابن عمه ان يثنيه عن ذلك قال له: وما همى يابن عم بنفسى وما لى فيها أمر ولانهى، ولا همى الا نفس الجرمية. فإن كنت تريد حياتى فأرنيها. قال: كيف الحيلة؟ قال: تحملنى إليها. وكان إذا قالوا له نذهب بك إلى وحشية يشفى قليلاً، وإذا أيس منها اشتد به الوجع.

ولـم يجـد ابـن عمـه سـبيلا إلا أن يحملـه الـى الحـى الـذي تعيش فيه وحشية. وهناك اختبأ في جبل من الجبــال، وراح ابـن العم ويسمى بـن بـوزل يتعـرض للرعـاة ويسـألهم عـن وحشـية، حتى لقي غلامها وغنمها فســأله عنهـا، فقـال الغـلام: هـى واللـه بشر! لاحفظ الله بنـى قشـير ولا يومـا رأينـاهم فيـه! فمـا زالـت عليلة منذ رأيناهم. وهذا يدل على أنها هى أيضـا أغرمـت بـابن الطثرية. فقال بن بوزل: ويحك! فإن ها هنا انسانا يداويهــا، فـلا تقل لأحد غيرها. وأخيراً حدث اللقاء، فاستقبلته وحشية في بيتها وبات عندها، وفي الغد جمعت له من تثـق فيهـن مـن صـاحباتها وأترابها، وظل بينهن ثـلاث ليـال، بينمـا ابـن عمـه ينتظـره فـي الجبل، ولما عاد إليه وجده أصح مما كان.

وقد ألهمته وحشية قصائد جميلة في الحب يقول فيها:

أحبــك أطــراف النهــار بشــاشــة

وبالليل يـدعـونـي الهـــوى فأجيـب

لئـن أصبحـت ريـح المـودة بيننــا

شمــالا لقـد ما كنـت وهـي جنـوب

وكتبت هي تجيبه على هذين البيتين:

أحبــك حب اليـــأس أن نفع الحيــا

وإن لـم يكـن لـي مـن هـواك طبيـــب

وبلغت الحكايـة سـمع عـم لوحشـية يدعـى فديـك، فزجــر نساءه، إلا أنهن أبين ألا أن يدخـل عليهـن يزيـد. واسـتقبلنه ذات يوم فعلم فديك فجمعهن جميعا ثم قال لهـن: لقد بلغنـى أن يزيـدا دخـل عليكـن وقد نهيتكـن عنـه، وإن اللـه علـى نـذرا واجبــا ـ وأخرج سيفه ـ إن لم أضـرب أعنـاقكن بـه. فلمـا ملأهـن رعبا ضرب عنق غلام له يقال عصام ثم انشد يقول:

ضــربت عصــامـا عبـرة حيـن رابني

أنــاســى مـن أهلــى مـراض قلـوبهـا

ولكى يمنع يزيد من الوصول إلى نساء قبيلته، حفر فديك حفرة على الطريق ثم أوقد فيها نارا هادئـة ثـم اختبـأ فـي مكـان ومعه عبدان لـه، وأمرهمـا أن يظـلا سـاهرين فـاذا شـاهدا يزيـد يقترب من الحي أخبراه. وبعد قليل رأى العبدان وحشية تتهــادى ذاهبة للقاء يزيد. أى أنها هـى التـى كـانت تسـعى إليـه وقبـل أن

يتمكن العبدان من ايقاظ عمها وقعت وحشية في الحفرة فاحترق بعضها وأسرع العبدان اليهما وحملاها الى عمها. وبلغت الحادثة سمع يزيد فراح يهجو عمها ويقول فيه:

يا سخنة العين للجرمي إذ جمعت

بيني وبين نوار وحشة الدار

خبرتهم عذبوا بالنار جارتهم

ومن يعذب غير الله بالنار

ولم يكن يزيد بن الطثرية مجرد شاب مليح الوجه معسول الكلام لاهم له سوى التغزل في النساء ومصاحبتهن، بل كان أيضا محاربا شجاعا لقي مصرعه وهو يحمل راية قومه اثناء قتالهم في معركة، وقد هرب من كانوا معه، وقتل من قتل ولكنه ثبت الا ان جبته شبكت في شئ ما فتعثر ووقع، فتجمع عليه أعداؤه وقتلوه، وكان ذلك حوالى عام ١٢٦هـ، أو كما يقول الاصفهانى: في خلافة بنى العباس وقد رثاه العديد من الشعراء من بينهم أخته وأمه وكذلك وحشية الجرمية.

ليلى الأخيلية وتوبة بن حمير

اعتاد المؤرخون العرب أن يمروا مرا سريعا على ابداعات المرأة العربية، نثراً أو شعراً أو فكراً، فلا نكاد نلمحها إلا لماما. ولهذا توقفت قليلا عند اخبار الشاعرة العربية الكبيرة ليلى بنت عبد الله بن الرحال (أو الرحالة) الملقبة بالأخيلية، كما جاء في كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى. وهو يصف ليلى بأنها "من النساء المتقدمات في الشعر من شعراء الاسلام".

ولم تكن ليلى شاعرة نكرة أو مجهولة بل كانت ذائعة الصيت ينشد الناس شعرها ويتغنى به أشهر المغنين، وفيه كانت

تفاخر بحبها لتوبة، وتحكى ما كان بينهما، ولها أكثر من قصيدة ترثيه فيها رثاء حارا بعد مقتله.

ويحكى أبو الفرج قصتها مع معاوية بن أبى سفيان عندما سألها: "ويحك ياليلى! أكما يقول الناس كان توبة؟" قالت: "ياأمير المؤمنين ليس كل ما يقول الناس حقا، والناس شجرة بغي يحسدون أهل النعم حيث كانوا وعلى من كانت".

ويفهم من هذا الحوار أن ليلى كانت تحضر مجلس معاوية، وأنه كان قد سمع بعض الروايات عن علاقتها بتوبة، فلم يتحرج من سؤالها عنه، واجابت هى بشجاعة وصراحة وفصاحة مشهودة، فوصفت حبيبها بأنه "كان ياأمير المؤمنين سبّط البنان، حديد اللسان، شجا للأقران، كريم المخبر، عفيف المِئزر، جميل المنظر" فإذا كان معاوية بن ابى سفيان قد حكم من عام ٤١هـ (٦٦١م) إلى عام ٦٠هـ (٦٧٩م) كما جاء في موسوعة احمد أمين (فجر الاسلام) فمعنى هذا ان ليلى الأخيلية كانت تعيش في النصف الأول من القرن الأول الهجرى. وهى لاتخجل في ردها على أمير المؤمنين من أن تصف حبيبها الذى لم تتزوجه قط بأنه كان جميلا كريما أنيقا لبقا .. إلخ.

ثم تضيف: "وهو ياأمير المؤمنين كما قلت له". قال: "وما قلت له؟" قالت "قلت له ولم أتعد الحق وعلمى فيه:

بعيد الثرى لا يبلغ القوم قعره

الَدّ مُلدُ يغلب الحق باطلهُ

اذا حِلّ ركبٌ في ذَراه وظله

ليمنَعهم مما تُخافُ نوازِلُه

حماهم بنصل السيف من كلّ فادح

يخافونه حتى تموت خصائلهُ

ليلى الاخيلية تعترف اذن، وفي حضرة أمير المؤمنين بأنها كانت تطارح حبيبها الغرام شعرا، وتمدحه في وجوده، واصفة إياه بأنه لا مثيل له، في قومه وفي قوة عزيمته حتى أنه إذا عادى الحق غلبه بالباطل، إذا احتمى به ركب ما حماه من أى نوع من الكوارث مهما فدحت. وتمضى ليلى في مدح حبيبها توبة بأبيات أخرى حتى يصيح بها معاوية: "ويحك ليلى! لقد جُزتِ بتوبة قدره" فقالت: "والله يا أمير المؤمنين لَو رأيته وخبرته لعرفت اني مقصرة في نعته، واني لا أبلغ كنه ما هو أهله".

ويشعر معاوية بالإعجاب الشديد بتلك المرأة التى بلغت شجاعتها حدا لم تسبقه إليها امرأة عربية أخرى. ربما لأنها شاعرة، والشعراء تغتفر ذنوبهم على اساس أن "أعذب الشعر أكذبه" كما يقول العرب.

فهم يلجأون للخيال، ويبالغون في وصف مشاعرهم وفي تمجيد خصال من يحبون. وتمضي الحكاية كما يلى: يسألها معاوية: "من أى الرجال كان؟" فتقول:

أتته المنايا حين تم تمامه

وأقصر عنه كل قرن يطاوله

وكان كليث الغاب يحمي عرينه

وترضى به اشباله وحلائله

غضوب حليم حين يطلب حلمه

وسم زعاف لاتصاب مقاتله

يأمر لها معاوية بجائزة عظيمة. ولكنه يستمر في سؤالها عن توبة بعد أن بهرته بفصاحتها وشعرها الجميل: فيقول لها: "خبرينى بأجود ما قلت فيه من الشعر." فتجيبه قائلة: "يا أمير

المؤمنين ما قلت شيئاً إلا والذى فيه من خصال الخير أكثر منـه"
ثم تردد أمامه قصيدة قالتها في توبة منها الأشعار التالية:

جـزى اللـه خـيرا والجـزاء بكفـه

فتـى من عُقَيـلٍ سـاد غـير مُكَلَّـف

فتـى كـانت الدنيّـا تهـونُ بأسرهـَـا

عليـه ولا ينفَـك جـمّ التصـرُّف

ينـالُ عليـاتِ الأمـور بهونـة

اذا هـي أعيـتَ كـلَّ خـرق مُشَرف

فيا توب مـا فـي العيش خيرٌ ولا ندى

يعد وقد امسـيتَ فـي قُـرب نفنـف

الحكاية غريبة خاصة إذا علمنا ما كان يتصف به معاويـة من دهاء وثقة في النفس، فكيف يتقبل أن يمـدح رجل آخر فـي حضرته بكل هذه الصفات.

ولكن تلك كانت ليلى الاخيلية، تدخل على الملوك ولا تهابهم، وتعلن ما بقلبها حتى لو أغضبتهم.

إن ليلى كانت في ريعان شبابها عندما التقت بمعاوية، فهناك حكاية اخرى عن لقائها بحفيده عبد الملك بن مروان الذي ولي الحكم في الفترة من ٦٥هـ - ٨٦هـ وكانت قد اسنت وعجزت فلم يتعرف عليها عندما رأها جالسة لدى زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية. سألها: "من أنت؟" قالت: "أنا الوالهة الحَرَّى ليلى الاخيلية" قال: "أنت التي تقولين:

اريقت جفانُ ابن الخليع فأصبحت
حياضُ النَّدىّ زالت بهن المراتب

فعفاته لهفى يطوفون حوله
كما انقض عرش البئر والورد عاصب

أى أن توبة بعد ان مات مات الندى بموته، وجفت البئر .. إلخ قالت: "أنا التى أقول ذلك" قال: "فما ابقيت لنا؟" قالت: "الذى أبقاه الله لك .. نسبا قُرشيا، وعيشا رخيا، وامرأة مطاعة" قال: "أفردته بالكرم"! قالت: "أفردته بما أفرده الله به."

لاحظ الجرأة في الرد على الحاكم، مع قوة الحجة وفصاحة لسان تلك الشاعرة العاشقة، لدرجة أن زوجة الحاكم

تغضب، وتحرضه عليها "لتقديمها أعرابيا جلفا على أمير المؤمنين". هنا تثب ليلى واقفة ثم تندفع في ترديد قصيدة طويلة تهجو فيها عاتكة نفسها وعبد الملك وتمدح آباءها هي وتوبة .. منها:

ستحملني ورحلي ذات وخْدٍ
عليها بنت آباء كرام

اذا جعلتْ سواد الشأم جنبا
وغُلقَ دونها بابُ اللئام

فليس بعائد أبدا اليهم
ذوو الحاجات في غَلس الظلام

أعاتك لو رأيت غداة بِنّا
عزاء النفس عنكم واعتزامي

أأجعل مثل توبة في نَداه
أبا الذبّانِ فُوهُ الدهرُ دامي

وهى تعنى أن الناقة التى ستحملها انما ستحمل امرأة من نسل كريم، اذا هى غادرت الشام (حيث ملك الامويين) بعد ان يغلق دونها بابهم (وتصفهم باللئام) فلن تعود اليهم أبدا ولن يلجأ

اليهم أى محتاج ذلك لانهـا تعتز بنفسـها، وهـى تـأبى ان تقـارن مابين توبة الذى يتساقط منه الندى بعبد الملك بـن مـروان الـذى يتجمع الذباب حول فمه ..!!

وفي رواية أخرى أن عبد الملـك بـن مـروان سـألها ذات يوم، وهى فـي آخـر أيامهـا: "مـا رأى توبـة فيـك حيـن هـواك"؟ فأجابته: "ما رآه الناس فيك حين ولّوك .."

ويبدو أن حكاية ليلى الاخيلية وعشـقها لتوبـة بـن الحُمـير كانت تثير خيال الناس على اختلاف مكانتهم، فكانوا يتقلبون كل ما ترويه ليلى بصدر رحب، ويسألونها بشغف عما كان بينهمـا. وقيل ان الحجاج بن يوسف الثقفى قد سألها ذات يوم: "أن شبابك قد ذهب، واضمحل أمرك وامر توبة، فأقسم عليك الا صدقتنـي، هل كانت بينكما ريبة قـط؟ أو خـاطبك فـي ذلـك قـط؟" وأقسـمت ليلى للحجاج ان حب توبة لها كان عفيفا شريفا على الرغم من أنهما يخلوان الى بعضهما، وانه أنشدها ذات ليلة:

وذى حاجة قلـنا لــه لا تبـح بـها

فليـس إليـها مـا حيّيـت سبيل

لـــنا صـاحـب لاينبغى ان نخـونـه

وأنـــت لأخــر فـــارغٍ وحَليلُ

وكـان الحجـاج يعجـب بشـعرها، ويجـزل لهـا العطـاء، ويستمع لشكواها باهتمام ويحقق لها رغباتها. وكان يستمع إليها ذات يوم، فلما فرغت من شعرها سأل جلساءه: "أتدرون من هذه؟ قالوا: لا! والله ما رأينا امرأة أفصح ولا أبلغ منها ولا أحسن انشاداً". قال: "هذه ليلى صاحبة توبة .."

على أن اعجابه الشديد بها لم يمنعه ذات يوم من اصدار الامر بقطع لسانها! وكانت قد دخلت عليه غاضبة تهدر، فسالها عن سبب شكواها، فقالت، لكنه لم يهتم كثيراً بشكواها. وقال لـــها: يـــاليلــــى، انشدينا بعض شعرك في توبة. فأنشدته قصيدة تقول فيها:

لعمـرك مـا بـالموت عـار علـــى الفتـــى

اذا لـم تصبـه فـــي الحيـــاة المعـــايــــر

ومـــا أحــــد حـــى وان عـــاش ســـالما

بأخلـــــد ممـــــن غيبتـــــه المقـابـــــر

فلا الحـى ممـــا أحـدث الدهر معتب

ولا الميـــت ان لــم يصبــر الحى ناشر

أحجـــاج ان اللــــــه أعطــاك غايـــة

يقصـــر عنهـــا مـــن أراد مــداهـــا

احجـاج لا يفــلل سلاحــك انمـــا الــــ

حنايــا بكــف اللـــه حيـــث تــراهـــا

فيأمر الحجاج بقطع لسانها، ولكنها تتــقذ نفســـها بانشـاد أبيات أخرى في مدحه.

وحكاية ليلى وتوبة من أغرب حكايات الحب فـي صـدر الاسلام، وهى حكاية تثير الكثير من التساؤلات، ليس عـن ذلـك العصر وما كان يجرى فيه، وإنما عن المرأة في كـل العصـور. ذلك المخلوق الرائع الذى خلق ليحب ويُحب. وهى عندمـا تمنـح قلبها طواعية لرجل ما، فهى تجلسه في نفس اللحظة على عرش الحيـاة ... وهـى تـراه بمنظـــار مـن المشـاعر أصـدق كثـيرا، وأعمق، وأرق، من كل العيون التى لاترى سوى مظهره.

والحكايات وردت إلينا في ذكر ليلى الاخيلية، ولم تأت على ذكر توبة .. أى اننا لأول مرة نعثر على المرأة العربية في موقع الفعل، فهى هنا فاعل، وليست كما رأينا في كل الحكايات السابقة، مفعولا بها.

والغريب أنى بحثت عن سيرة توبة بن الحُمير فوجدت أغلبها مكرسا لوصف معاركه الكثيرة واغارته مع صحبه على القبائل، ثم قتله بواسطة أحد أبناء تلك القبائل.

وحقيقة الأمر أن توبة كان شابا طائشا متهوراً، لاصنعة له سوى اثارة المشاكل مع بعض القبائل وبالذات بنو الحارث بن كعب وخثعم وهمدان بل أنه كان كثير التحدث الى النساء، وقد روى عنه انه قال:

أيذهب ريعان الشباب ولم أزر

غرائر من همدان بيضا نحورها

وقيل أنه كان يغير على القبيلة في شدة الحر والقيظ، فاذا ماطاردوه أسرع الى مفازة منكرة لا يقطعها الطير، فيرجعون عنه خشية الموت في تلك المفازة عطشا. أما هو فكان يستعد

قبل الاغارة بأن يحمل بعض الماء ويدفن منه على مسيرة كل يوم مزادة فإذا ما سلك المفازة وجد ماءه، وعاش عليه.

من هو توبة ..؟!

ويروى انه خرج الى الشام، فمر ببنى مذرة، فراته بثينة فجعلت تنظر إليه، فشق ذلك على جميل، ومعروف غرام جميل ببثينة، ولكن حدث ذلك قبل أن يظهر حبه لها. عندئذ شعر جميل بالغيرة الشديدة واندفع يسأل الفارس القادم: من أنت؟! فأجابه: أنا توبة بن الحُمير.

وكما يحدث دائماً، عندما يشعر العاشق أن المرأة التى يهواها ترقبه، ويود ان يظهر لها شجاعته وفروسيته، يتحدى جميل توبة أن يصارعه، ويتشابكان وتكون الغلبة لجميل، ثم يتبارزان، ويهزم توبة أيضاً، وأخيرا يتسابقان، فيسبقه جميل. كل هذا وبثينة ترقبهما عن قرب، ويدرك توبة، بخبرته في مجال العشق، أن القوة التى تغلبه في جميل مستمدة من عينى بثينة الساحرتين، فيقول له: يا هذا انما تفعل هذا بريح هذه

الجالسة، ولكن اهبط بنا الوادى، وهناك بعيدا عن عينى المحبوبة، يتمكن توبة من غلبة جميل في المصارعة والمبارزة والسباق!!

إلى هذا الحد كان للمرأة في صدر الإسلام تاثير على الرجل. عيناها حافزة، وقلبها هدفه، وهكذا كان حال ليلى وتوبة الذى كان يتعشقها ويقول فيها الشعر، وكان معتاداً على زيارتها، ولم تكن تلك الزيارات سرية بل كانت في العلن، فلما كثرت عاتبه أخوها وقومها. وكان قد خطبها من أبيها ولكنه أبى أن يزوجه أياها، ولا نعرف لماذا يرفض الآباء العرب دائما أن يزوجوا بناتهم لمن يعشقونهن. هل هو انكار للحب واستخفاف بالمشاعر الانسانية النبيلة؟! أم أنها رغبة سادية في تعذيب العشاق وتلويعهم حتى لا يكفوا عن البكاء ولا يشفوا من الشوق؟!

ولا ينتظر الأب كثيراً، بل يسرع بتزويج ليلى من أحد بنى الأدلع. ويفاجأ توبة ويحزن حزنا شديدا، ولكنه يستمر في لقاء ليلى، وواضح أيضا أنها لم تكن تمانع في لقائه. ولا يجد

الاهل من وسيلة لعلاج هذا الأمر سوى الشكوى إلى السلطان (!!) ولا يجد السلطان حلا لهذه المشكلة سوى أن يبيح لهم دم توبة (!!) وكان زوج ليلى غيورا فأقسم ليقتلنها إن هى لم تعلمه بمجئ توبة، أو أنذرت توبة بأن أهلها يتربصون به ليقتلوه. وهكذا تصرف الزوج الهمام. وتحكى ليلى بقية الحكاية: "وكنت أعرف الوجه الذى يجئ منه، فرصدوه بموضع ورصدته بآخر، فلما اقبل لم أقدر على كلامه لليمين، فسفرت والقيت البرقع عن رأسي. فلما رأى ذلك أنكره فركب راحلته ومضى، ففاتهم".

وهكذا، بحيلة طريفة، غاية في الذكاء، أنقذت ليلى حبيبها توبة من القتل المؤكد، أما توبة فرجع الى راحلته وركبها ومضى ينشد قصيدة طويلة تبدأ هذا بالبيت:

نأتك بليلى دارها لاتزورها

وشطت نواها واستمر مريرها

ثم يقول فيها:

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت

فقد رابنى منها الغداة سفورها

ومعنى هذا أن البدوية كانت إذا ما أرادت أن تتزين، وتبرز مفاتنها لحبيبها تتبرقع.

وبذلك التيار السحرى الذي يسرى بين كل قلبين عاشقين، فطن توبة لحيلة ليلى وأدرك أن سفورها علامة خطر، وتحذير، واشارة لا سلكية تقول له ابتعد .. انج بحياتك.

والحكايات كثيرة عن غيرة زوج ليلى الاخيلية، وشكه فيها لدرجة أنه أوشك أن يقتل رجلا بريئا لمجرد انه اقترب منها، وكان الرجل من بنى كلاب، يبتغى إبلا له حتى نفد زاده وجاع، وحينما جاء الليل وجد نفسه قريبا من بيت ليلى، ولم يكن يعرف بيت من هذا، ولكنه اقترب من الخباء ولم يجد به أحدا، فنزل حيث ينزل الضيف. وهى عادة بدوية معروفة أن يترك أهل البيت مكانا معدا لعابرى السبيل الذين يضلون طريقهم في الصحراء، أو لا يرغبون في السفر في أثناء الليل، وعاد زوج ليلى وكان قد شاهد شبح الضيف من بعيد، فمضى يضربها وهو يصيح "والله لا اترك ضربك حتى يأتى ضيفك هذا ويغيثك" فلما عيل صبرها نادت: ياصاحب البعير يارجل! فأسرع نحوها الضيف وهو يحمل هرواته، وراح يكيل للزوج

ولكنها منعته، وحالت بينه وبين زوجها، فانصرف عنهما. وفي الطريق سأل بعض الناس عن ذلك البيت وصاحبه وزوجته فعرف أنها ليلى الاخيلية.

هكذا كان زوج ليلى غيورا مندفعا، فكيف كان توبة يتحايل ويلقاها ويجددان العهد حتى انها ظلت تجاهر بحبها له لآخر يوم في حياتها. ذلك واحد من الاسئلة المحيرة التي تطاردنا ونحن نقرأ بشغف قصة غرام ليلى الاخيلية بتوبة بن الحُمير. والمدهش ان تلك القصة ذاعت في حينها وتناقلتها الأفواه حتى وصلت الى الحكام، فنجد المنشدين يرددون أشعارهما، والمغنين يلحنونها ويغنونها وابا الفرج الاصفهانى يخلدها في كتابه الاغانى .. بل إن قصيدة واحدة من قصائد توبة غناها عدة مغنين بينهم ابن سريج والهزلي وابن محرز وابن مسجح، وفي هذه القصيدة أبيات يخاطب بها توبة ليلى الاخيلية الشاعرة فيقول:

حمامة بطن الواديين ترنمي

سقاك من الغر الغوادي مطيرها

أبينـــي لنـــا لازال ريشــك ناعمــا

ولازلـــت فــي خضــراء دان بريرهــا

فهو يراها كالحمامة ذات الريش الناعم والصـوت الجميل تترنم بالأشعار حول حبهما، ويدعو لها بأن ترتوى بماء المطـر وأن تظل أجمل ما في المكان الذى تعيش فيـه، وهـو يحكـى لنـا كيف يتلصص على ليلى مـن مكـان قريـب لعلـه يراهـا أو حتـى يــرى مــن يــراهـــا، كما كـــان قيـــس بـــن الملـوح يقـول عن ليلاه هو ايضا.

وأشـــرف بــالقــوز اليفـاع لعلنـــى

أرى نــار ليلــى أو يرانــى بصيرهــا

ثم هو يدافع عن حبـه لليلـى، لأنـه حـب عفيـف لا يبتغـى شيئا سوى زيارتها، أى الجلوس اليها والاستمتاع لحديثها الحلو، وهو أمر يمكن فهمــه تمامـا اذا مـاعرف ان هـذه الحبيبـة ليسـت عادية، بل هى واحدة من الشاعرات العربيات الكبيرات، فيقول:

علـــى دمـاء البُدن إن كـان بعلهـا

يـرى لـى ذنبـا غـــير أنـــى ازورهـــا

واني اذا مـا زرتها قلت يـا اسـلمي

ومـا كـان فـي قـول اسـلمى مـا يضيرهـا

وقـد رويت هـذه الابيـات علـى الاصمعـى فعقّب قـائلا: شكوى مظلوم، وفعل ظالم ..

كـان توبـة شـابا غريبـا، سـابقا لزمانـه وصـف بأنـه كـان شريرا كثير الاغارة، وقال معاوية بن ابى سفيان عنـه أنـه كـان "عاهرا خاربا" اى لصـا. امـا ليلـى فكـانت تـراه أفضـل الرجـال وأكملهم خلقا وحسنا، وظلـت تحكـي حكايتهـا معـه وتفيـض فـي مدحـه حتـى شـعر الحجـاج بـالغيظ وأمـر بقطـع لسـانـها، وسـألـها عـبد المـلك بـن مـروان بـعد أن سـمع قصيـدة لها فيه: وما أبقيت لنا ..؟!

بالشـعر عاشـت ليلـى، والحـب كرسـت ابداعهـا، وأطلقـت عقال مشاعرها، وعندما استقبلت خـبر مقتـل حبيبهـا توبـة بكتـه بالدمع الثخين ورثته في قصيدة مطولة تدافع عنه، وفيها تقول:

وتـوبـة أحيـا مـن فتـاة حيـيـة

وأجـرأ مـن ليـث بخفـان خـادر

ونعـــم الفتـــى إن كـان توبـة فـــاجرا

وفـــوق الفتـــــى ان كـــان ليــس بفــاجر

وقد غنى المغنون قصائدها العديدة في رثــاء توبــة، وكــان للقصيدة الواحدة أكثر من لحن وأكثر من مغن. وقـد ظلـت علـى حبها لتوبة إلى آخر يوم في حياتها، حتى كـانت ذات يـوم علـى سفر، فمرت بقبر توبة ومعها زوجها، فـأصرت علـى أن تـزور القبر لتسلم على توبة. وحاول زوجها أن يمنعها ولكنها أصـرت فتركها. وصعدت اكمـة عليهـا قبرتوبـة، ثـم قـالت السـلام عليك ياتوبة، ثم حولت وجهها الى القوم وقالت: "ماعرفت له كذبة قـط قبل هذا .... أليس القائل:

ولـو أن ليلـــى الاخيليـــة سلـــمت

علـى ودونـى تربـــة وصـــفائـــــح

لسلمــت تسليم البـــشاشـــة أو زقـــا

اليـها صدى من جـانب القبـر صـائح

وأغبط من ليلى بما لا أناله

ألا كل ما قرت به العين صالح

فما باله لم يسلم عليّ كما قال!

وفي تلك اللحظة فزعت بومة كانت تكمن بجوار القبر، فنفر الجمل ورمى ليلى على رأسها فماتت لساعتها، ودفنوها إلى جانب توبة.

عندما تعلو العين على الحاجب

أبو دهبل وبنت معاوية

عندما يدق الحب على باب قلب فانه لايفرق بين الامير والفقير، ولا يعرف الكبير من الصغير.

وذات يوم اخترقت سهام الحب قلب فتى عربى من عامة الناس، وأميرة عربية من الاسرة الحاكمة المالكة.

كان شابا جميلا مختالا بنفسه، يطيل شعره حتى منكبيه، ويقول الشعر الجميل، يعتز بنفسه وبأصله، فهو من أشراف بنى جمح، وأمه من هذيل تدعى هذيلة بنت سلمة. أما هو فكان يدعى "أبو دهبل". وهذيل قبيلة من قبائل مضر كانت تسكن جبالا قريبة من مكة، اشتهر أبناؤها بكثرة شعرهم وجودته. فهو

اذن عربي أصيل. أما محبوبته فكانت عاتكة بنت معاوية بن أبى سفيان. في ذلك الزمان شاع بين الناس قول أبى دهبل:

انـــي دعانـــي الحيـــن فـــاقتـــادنـــي

حتـــى رأيـــت الظبـــى بـــالبـــاب

يـــاحسنــــه اذ سبني مدبـــرا

مستتـــــرا عنــــي بجلبـــــاب

سبحان من وقفهـــا حســـرة

صبـت علـــى القلـــب بأوصـــاب

يـــذود عنها إن تطلبتهـــــا

أب لهـــا ليــــس بـــوهـــــاب

أحلهـــا قصـــرا منيـــع الـــذرى

يحمـــى بـــأبـــواب وحجـــــاب

وعـــرف الناس أن أبا دهبل كان يعنى بالظبي عاتكة بنت معاوية بن أبي سفيان.

ففي أثناء رحلة عاتكة الى مكة للحج، انقطع بهـا الطريـق في وادي طـوى،. كـانت الشمس تصـب نيرانهـا فـي يـوم قـائظ الحرارة، فأمرت عاتكة جواريهـا بـأن يرفعن السـتائر، وأطلـت برأسها تتطلع إلى الطريق، وقد تخففت في ثياب شفافة ..

وتصادف أن مر أبو دهبل بذلـك المكـان فاسـتوقفه منظـر عـــاتكـــة وراح يـــرقبـــها عن بعد معجبا بجمالهـا، وهـــي لا تشعر بوجوده.

وعندما أحست بنظراته تثقب وجهها التفتـت إليـه، فـالتقت نظراتهما، وأســرعت تستر وجههـا، وتـأمر الجـواري أن يعـدن الستائر لمكانها، وراحت تسب ابا دهبل.

لحظات قصيرة، لكنها قد تكـون بـالعمر كلـه، وأدرك ابـو دهبل أن سهام الحب قد أصابته فانشد تلك الابيات، التى سـمعها بعض رفاقه فرددوها، وشاعت بين الناس في مكة، حتى وصلت الى المغنين فلحنوها وتغنوا بها. والناس جميعا يعلمون من هـي الظبية الجميلة التى سـلبت الشـاعر قلبـه، ومـن هـو أبوهـا الـذي يحتجزها في قصر منيع يقف على أبوابه الحراس والحجاب.

سمعت عاتكة الابيات فطربت لها، وضحكت وعبرت عن اعجابها، بالشعر وبالشاعر نفسه بأن ارسلت إليه هدية ثمينة: كسوة يرتديها ويختال بها، وبجمته: أى شعره المسترسل على كتفيه بين الناس. وجرت بينهما الرسائل، والرسل .. ونمت علاقة الحب حتى أن أبا دهبل تبع عاتكة الى دمشق بعد انتهاء زيارتها الى مكة.

ولكن في دمشق اختلفت الامور، فقد وصل الخبر الى الأب، فشدد الحراسة على ابنته، ولم تستطع أن تبر بوعدها للعاشق الولهان .. وطال انتظار ابى دهبل، واستبد به الشوق فراح يمطرها بأشعار الحب والغزل العفيف .. ثم مرض مرضا طويلا. فقال في ذلك شعرا منه:

طال ليلى وبت كالمحزون
وملت الثواء في جيرون

وأطلت المقام بالشام حتى
ظن أهلي مرجمات الظنون

فبكت خشية التفرق جمل
كبكاء القرين اثر القرين

وهى زهرة مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون

واذا مـــا نسبتـــها لـــم تجـدهـــا

فـــي ســـناء مـــن المكـــارم دون

ثـم خاصـــرتها الـى القبـة الخضـ

ـــراء تمشـي فـــي مرمـر مسـنون

وشاع هذا الشعر حتى بلــغ معاويـة فأمسك عنـه حتـى اذا كان في يوم الجمعة دخـل عليـه النـاس وفيهم ابـو دهبـل، فـأمر حاجبه بأن يحتجزه بعد انتهاء الخطبـة، وأخـذ النـاس يسلمون وينصرفون، فقام أبو دهبل لينصـرف ولكن معاويـة نـادى عليـه، وأجلسه إلى جواره حتـى خـلا المكـان مـن النـاس فقـال معاويـة لأبى دهبل: ما كنت أظن ان في قريش أشعر منك حيث تقول:

ولقـــد قلـت اذ تطـــاول سقمـــى

وتقلبـــت ليلتـــى فـــي فنـــون

ليت شعرى أمـن هـوى طـار نومـى

أم برانـــى البـارى قصـير الجفـون

وهى بقية القصيدة التى قالها في عاتكة بالشام، ثم أضاف الخليفة معاوية: غير انك قلت:

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغواص ميزت من جوهر مكنون

واذا ما نسبتها لم تجدها

في سناء من المكارم دون

ووالله ان فتاة أبوها معاوية وجدها أبو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت، وأى شيء زدت في قدرها؟! لكنك اسأت عندما قلت:

ثم خاصرتها في القبة الخضـ

ـراء تمشي في مرمر مسنون

قال ابو دهبل: والله ياأمير المؤمنين ما قلت هذا، وإنما قيل على لساني. فقال له معاوية: أما من جهتي فلا خوف عليك، لأنى أعلم صيانة ابنتى لنفسها، وأعرف أن فتيان الشعر، لم يتركوا ان يقولوا النسيب في كل من جاز ان يقولوه فيه وكل من لم يجز، وإنما أكره لك جوار يزيد وأخاف عليك وثباته، فان له ثورة الشباب وأنفة الملوك". ويزيد بن معاوية الذى حذر منه ابو دهبل؟ هو الذى قال عنه المسعودى إنه كان يعيش في شبابه

عيشة هى اقرب الى الجاهلية فكان .. "صاحب طرب وجوارح وكلاب (للصيد) ومنادمة على الشراب، وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة، واستعملت الملاهى، واظهر الناس شرب الشراب وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله"

استمرت خلافة معاوية بن ابى سفيان من عام ٤١ ــ ٦٠هـ، خلفه بعدها يزيد ابنه حتى عام ٦٣هـ، أى لمدة ثلاث سنوات فقط. كان ابو دهبل على حق عندما ادرك جسامة موقفه، فتقبل تحذير أمير المؤمنين واسرع بالهرب من دمشق عائدا إلى موطنه في مكة .. إلا أنه استمر يكاتب عاتكة. وذات يوم وقعت احدى رسائله في يد خادم لمعاوية، فاحتال حتى سرقها من عاتكة وسلمها الى معاوية، ووصف له حالها عندما تسلمتها، وكيف أنها أصيبت بالحزن والاكتئاب ثم خبأتها تحت سجادة صلاتها.

قرأ يزيد الخطاب فوجد فيها أبيات شعر منها:

أعاتك هلا اذ نجلت فلا ترى

لذى صبوة زلفى لديك ولاحقا

رددت فؤادا قد تولى بـه الهوى

وسكنت عينا لا تمل ولا ترقا

ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى

ولم ار يوما منك جودا ولا صدقا

انتسين ايامى بربعك مدنفا

صريعا بأرض الشام ذا سقم ملقى

وليس صديق يرتضى لوصية

وادعو لدائى بالشراب فلا اسقى

واكبر همى أن أرى لك مرسلا

فطول نهاري جالس أرقب الطرقا

فواكبدى اذ ليس لي منك مجلس

فأشكو الذي بي من هواك وما ألقى

رأيتك تزدادين للحب غلظة

ويزداد قلبى كل يوم لكم عشقا

والمعنى واضح، فهذا الشاب الذى وصف بأنه كان رجلاً صالحا وعفيفا، ترك كل ما يجرى في زمانه من أحداث سياسية ومذاهب فكرية وتفرغ لعشق بنت أقوى الخلفاء وأشدهم صلابة

وأكثرهم مكرا ودهاء .. وهو لا يكتفى بذلك بـل يشـبب بهـا فـي شعر يتردد على السنة الناس ويتغنى به المغنون، ويقول فيه أنها خلعت قلبه بالوعد والمنى، أى انهـا كـانت تمنيه بـالـوعـود، كما كانت ترسل إليه الهدايا، فهى اذن قد شجعتـه على الوقوع في حبها.

ليس هذا فحسب، بل أنها كانت تراسله فهو يجلـس النهـار كله في انتظار وصول رسولها، وعندما لا يصل الرسول يشـعر بالحزن وتنهمر الدموع من عينيه ..

قرأ معاويـة ابـن أبـى سـفيان هـذا الشـعر، وأدرك أن موضوع ابنته مع أبى دهبل لـم ينـته فمـاذا فـعل؟ .. لـقد خـرج أبو دهـبل عـلى القانون الاجتماعى..

فما الذى ينتظره خارج على القانون من حاكم مستبد؟!

ذلك الفتى العربى جميل الطلعة، حسن السمعة، الذى وقـع في حب بنت الخليفة من النظـرة الأولـى خـالف قـانون الفـوارق الاجتماعية. هذا القانون الذي مازال معمولا به ومعترفا به حتى يـومـنا هـذا .. فـالعين لا تعلـو عـن الحـاجب، والميـاه لا تجرى في العالى ..

ولكن أبا دهبل الجمحى لم يكن يسعى لخرق القوانين الاجتماعية الثابتة .. انه ببساطة عاشق احب فعبر عن عاطفته في اشعار جميلة، وترك لقلبه العنان .. يشتاق ويحلم بالوصل ويمنى نفسه بلقاء الحبيب ...

ولعله لم يكن يتوقع أن يصل الامر إلى أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان نفسه. لذلك ذهب إلى الجامع الذي يخطب فيه كل يوم جمعة، وحضر الصلاة واستمع للخطبة ثم تأهب للخروج مع كل الخارجين.

وعندما ناداه الخليفة وتحدث معه بشأن الشعر الذى تشبب فيه بابنته عاتكة، وحذره من مغبة الوقوع في يد ابنه واخيها يزيد، استمع للنصح ولم يعتبره وعيدا، واسرع يغادر الشام إلى الحجاز ..

وهناك، وسط أتربة، وفي ربوع المدينة التى ولد ونشأ بها، عاد الحنين ينمو شوكاً في قلبه، وغلبه الحب على أمره، فراح يبعث الخطابات والمراسيل الى حبيبته عاتكة، وكأنه على يقين من أن أمرهما لن يفتضح.

ولكن الحب وإن كان اعمى كما يشاع عنه، إلا ان الناس لا يمكن ان تعمى عنه .. انه أروع وازهى من ان يختفى عن الانظار .. فيظن المحب أنه قد خبأه وأخفاه بين الضلوع، فاذا به يفر من القلب ليصبغ الخدين بالحمرة وليزيد العينين بريقا واشعاعا. ولعل هذا ما فضح عاتكة، فتلصص عليها الخدم ورآها خصي تتسلم رسالة من حبيبها أبى دهبل فأسرع يبلغ أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان. هذا الرجل الذى وصف بأنه كان سياسيا داهية، وكان رجل دولة من طراز فريد ما إن قرأ الشعر الذى أرسله ابو دهبل إلى ابنته عاتكة حتى بعث إلى ابنه يزيد فأتاه، فدخل عليه فوجده مطرقا، فقال:

- يا أمير المؤمنين .... ما هذا الامر الذى شجاك قال معاوية: أمر أمرضنى واقلقنى منذ اليوم، وما أدرى ما أعمل في شأنه.

قال يزيد: وما هو يا أمير المؤمنين؟

قال: هذا الفاسق أبو دهبل كتب بهذه الابيات الى أختك عاتكة، فلم تزل باكية منذ اليوم، وقد افسدها، فما ترى فيه؟

لم يهتم يزيد بن معاوية بأن يسأل أباه هل بكت عاتكة أخته غضبا وثورة على الشعر أم لوعة وحزنا على الشاعر؟!

لم يهتم أى منهما بمشاعر عاتكة، ولم يخطر ببال أحدهما أن يسألها أو يستشرها. أما يزيد فقد قرر بسرعة كيف يتصرف. قال لأبيه:

- والله إن الرأى لهين

قال: وما هو؟ قال: عبد من عبيدك يكمن له (أى لأبى دهبل) في أزقة مكة فيريحنا منه.

هذا هو الحل الأيسر ..!

أما معاوية رجل السياسة المحنك فيقول لابنه على الفور: أف لك! والله ان امرءا يريد بك ما يريد، ويسمو بك إلى ما يسمو كغير ذى رأي، وانت قد ضاق ذرعك بكلمة وقصر فيها باعك حتى اردت ان تقتل رجلا من قريش! أو ما تعلم انك اذا فعلت ذلك صدقت قوله وجعلتنا أحدوثة ابداً!

قال يزيد: ياأمير المؤمنين، انه قال قصيدة اخرى تناشدها أهل مكة وسارت حتى بلغتنى واوجعتنى وحملتنى على ما أشرت به ثم أنشده قول أبى دهبل:

ألا لا تقل مهلا فقد ذهب المهل

وما كان من يلحى محبا له عقل

لقد كان في حولين حالا ولم أزر

هواي وان خوفت عن حبها شغل

حمى الملك الجبار عنى لقاءها

فمن دونها تخشى المتالف والقتل

فلا خير في حب يخاف وباله

ولا في حبيب لا يكون له وصل

فواكبدي أنى شهرت بحبها

ولم يك فيما بيننا ساعة بذل

وياعجبا أنى أكاتم حبها

وقد شاع حتى قطعت دونها السبل

فقال معاوية: قد والله رفهت عنى، فما كنت آمن انه قد وصل إليها، فأما الآن وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصل ولابذل فالخطب فيه يسير، قم عنى، فقام يزيد فانصرف.

وهكذا أنقذ الشعر أبا دهبل من مصير محتوم، سيعانى منه عاشق آخر تجرأ فأحب زوجة الخليفة بعد سنوات وتشبب بها فكان نصيبه أن دفن حيا. ذلك الشاعر هو وضاح اليمن.

تشهد هذا الحكاية على شخصية معاوية الذى تعمد ان يحج في تلك السنة ليذهب إلى مكة ويلتقى مرة أخرى بأبى دهبل. فما إن انقضت ايام الحج حتى كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وشعرائهم ومن بينهم أبو دهبل. ثم دعاهم اليه وفرق عليهم هباته وعطاياه. فلما تسلم أبو دهبل هديته قام لينصرف ولكن معاوية دعا به. فرجع اليه فقال له: يا أبا دهبل، إن يزيد ابن أمير المؤمنين ساخط عليك لشعر قلته فينا.

ألم احذرك من أبى خالد ..؟!

وراح أبو دهبل – للمرة الثانية – يعتذر لأمير المؤمنين ويقسم بأغلظ الايمان أنه لم يقل ذلك الشعر وأنه مدسوس عليه.

قال معاوية: لابأس عليك، وما يضرك ذلك عندنا، فهل تأهلت؟ قال أبو دهبل: لا.

سأله معاوية: فأى بنات عمك أحب إليك؟

فأجاب: فلانة، فقال أمير المؤمنين: قد زوجتكما وأصدقتها ألفى دينار وأمرت لك بألف دينار.

هكذا تصرف الخليفة الحكيم. فهو لم يكف عاشق ابنته والمتشبب بها شر نفسه وشر ابنه المتعطش للدماء فقط، وإنما عامل أبى دهبل بحنان غريب، وقد تعمدت أن أنقل الحكاية كاملة – مع تعديلات طفيفة – عن أبى الفرج الاصفهانى حتى نقرأ معا ذلك الحوار البديع بين الخليفة وابنه من ناحية، وبينه وبين أبى دهبل عاشق ابنته من ناحية اخرى. وهو حوار لا يقل عمقا وبساطة عن حوار اية مسرحية عصرية لمؤلف كبير.

ولكن الراوى صاحب الأغانى لا يشك لحظة في أنه حدث وان الحكاية كلها حقيقية. وتكون النتيجة المنطقية لسعة صدر الحاكم وحكمته ان يعده أبو دهبل وعد شرف بألا يتعرض لابنته مرة اخرى ويصدق في وعده ...

ولقد عاش أبو دهبل طويلا، فعاصر خلافة يزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، واشتغل مع عبد الله بن الزبير – الذي كان يطالب بالخلافة من بنى أمية – فولاه بعض أعمال اليمن، وعرف عنه الصلاح والعفة فرويت

الحكايات عن غراميات أخرى له مع امرأة تدعى عمـرة، كـانت مثقفة، تجلس إلى الرجال وتتبادل معهم انشاد الشـعر والاخبـار، ولم يكن هـو يفـارق مجلسـها. ولكـن البعـض شـعر بـالغيرة مـن اهتمام عمرة بأبى دهبل، ويقال إن زوجته هى التى أوعزت الى امرأة داهيـة مـن عجـائز أهلهـا لتوقـع بينهـا وبيـن أبـى دهبـل، فتخبرها انه يشيع بين الناس انهما متحابان.

وقد غضبت عمرة غضبا شديدا، وثارت على أبى دهبل، وعلى كل الرجال الآخرين فقررت انهـم لا يستحقون مجالستها والاستمتاع بأحاديثها الشيقة، واحتجبت عن الجميع ..

ورويت عن أبى دهبـل روايـة أخـرى غريبـة عـن احـدى النسـاء الشـاميات تحـايلت حتـى ادخلتـه قصرهـا فـي دمشـق ثـم احتجزته عاما كاملا لولهها به. وأنه رفض أن يعيـش معهـا فـي الحرام وأصر على الزواج بها، ثم عاد إلى أهله بعد عـام ليجـد أبناءه قد اقتسموا ثروته فيما بينهم، وامرأته أصابهـا العشـى مـن كثرة البكاء عليه ..

أبو دهبل اذن لم يكن شخصية من صنع الخيال .. بل كان رجلا من دم ولحم .. عاش مراحل متعددة .. أروعها ـ ربما ـ تلـك الفـترة المبكـرة فـي صبـاه التـى أغـرم بهـا وفتـن بحـب مستحيل.. حب بنت الخليفة.

وضاح اليمن الذي عشقته

زوجة الخليفة

حكاية أغرب من حكايات ألف ليلة وليلة ولولا انها ذكرت في أكثر من كتاب يؤرخ للعرب في صدر الإسلام لما صدقتها، ولولا أنهم قالوا إنها حدثت في عصر الخليفة الوليد بن عبد الملك، أى قبل عصر تدوين ألف ليلة وليلة لقلت إنها منقولة حرفيا عن ذلك الكتاب الشهير ..

بطلة الحكاية زوجة لأحد الحكام المسلمين هو الوليد بن عبد الملك والبطل شاعر معروف يسمى وضاح اليمن فإذا عرفنا ان الاسم الحقيقى للشاعر كان عبد الرحمن بن اسماعيل

بن عبد كلال وانه لقب وضاح اليمن لجماله وبهائه ادركنا على الفور لماذا وقعت زوجة الحاكم المرهوب والخليفة أمير المؤمنين رجل الدولة المعروف بحزمه في هواه.

وسيناريو الحكاية الحقيقية يبدأ بزوجة الخليفة، وهى بنت عمه أيضا وأم ابنه، ولذلك لقبت بأم البنين، تستأذن زوجها في الذهاب إلى مكة للحج. ولابد أن أم البنين كانت بارعة الحسن والجمال لأن الرواة يقولون ان الخليفة الاموى، زوجها وابن عمها الوليد ابن عبد الملك كتب يتوعد الشعراء جميعا ان ذكرها أحد منهم أو ذكر احدى جواريها في اشعاره ..

فالوليد يعلم اذن ان هذا وارد، وان شعراء الغزل العذري والغزل اللاهى الذي كان منتشرا في تلك الحقبة من الزمان لن يتركوا زوجته في حالها، وان المغنين والمغنيات الذين امتلأت بهم مكة والمدينة وضواحيها في ذلك العهد سوف يتلقون اشعار الشعراء بلهفة ويلحنونها ويغنونها في مجالس الارستقراطية العربية في كل انحاء الحجاز. وان المتندرين والمتفكهين من امثال أشعب لن يكفوا عن رواية الحكايات والنوادر حول اخبار زوجة الخليفة وكل ما سيحدث لها.

وأم البنين كانت تعلم ايضا ان رحلتها الى الحجاز لم تكن فقط لاداء فريضة الحج، وإنما كانت نوعا من السياحة ترفه به عن نفسها، وتتعرف إلى معالم الحجاز في عصرها الذهبى، وتقف على ما كانت تسمعه من أخبار تلك الرقعة من أرض العرب في الربع الأخير من القرن الهجرى الأول.

ان الانتقال من دمشق - حاضرة الدولة الاموية - الى الحجاز في ذلك الوقت كان كالسفر من اسيوط إلى باريس. هناك حيث حياة كلها فرح ومرح وطرب وشراب كما وصفها د. أحمد امين في موسوعته.

والانتقال من قصر الخلافة حيث انشغل الخليفة بفتوحاته وانتصارات جيشه في الهند وبخارى، وسمرقند وخوارزم والاندلس، الى مكة والمدينة حيث مجالس الشعر والغناء والطرب وحيث الجوارى الاجنبيات من روم وفرس وهنديات وسيريانيات ..

انتقال من حياة مغلقة لا جديد فيها الى دنيا رحبة فسيحة الأرجاء يستنشق فيها المرء عبيراً ذكيا للحياة وتتفتح مسامه للحب وللامل ..

استعدت أم البنين للرحلة، وصحبت معها أجمل جواريها، وسارت بهن في موكب عظيم، اصطف الناس على الجانبين ليشاهدوا زوجة الخليفة وجواريها. وما ان تراءت للناس حتى تصدى لها أهل الغزل والشعر. أما هى فقد حطت عينيها على واحد منهم .. واحد فقط ما أن رأته حتى وقعت في هواه وسعت للقياه .. ذلك هو وضاح اليمن .. ولكى لا تلفت النظر أرسلت تستدعى الشاعر المعروف كُثير وتستدعيه أيضاً .. والغرض معروف: أن يقدما اليها ويحضرا مجلسها وينسبا بها ..

أما عن وضاح اليمن فلم يكن في أفضل حال. فقبل أن تقدم أم البنين الى مكة كان وضاح يعانى من فشله في حب امرأة تدعى روضة. لقد احب وضاح روضة وتشبب بها وتقدم للزواج منها، لكن اهلها رفضوه وزوجوها لرجل آخر، فيعبر عن حزنه في أشعار كثيرة منها:

أيا روضة الوضاح يا خير روضة
لأهلك لو جادوا علينا بمنزل
رهينك وضاح ذهبت بعقله
فإن شئت فأحييه وإن شئت فاقتل

وذات يوم وبينما هو على سفر مع بعض أصحابه التقى برجل من بلد روضة، فجلس يتحدث إليه ثم تركه وعاد الى أصحابه والهم يكاد يقتله والدموع تنساب من عينيه وسأله الصحاب: ماذا بك؟! فأجابهم بأن الرجل أخبره ان روضة قد جذمت، وانه رآها قد أبعدت عن بلدها وأُلقيت مع المجذومين.

ولم ينقطع حب وضاح اليمن لروضته، بل كان يزورها حيث عزلت مع المجذومين، ويصلح من شأنها ويعطيها بعض المال ويبكي غما وحزنا عليها.

اني تهيجني حمامتان على فنن
الزوج يدعو الفه فتطاعما حب السكن
لاخير في نث الحديث ولا الجليس اذا فطن
ابلغت عنك تبدلا واتى بذلك مؤتمن
وظننت أنك قد فعلت فكدت من حزن اجن
ذرفت دموعى ثم مدت بمن يبادلني بمن
انى وجدك لو رأيت خليلنا ذاك الحسن
يجفوه ثم يحبنا والله مت من الحزن

فهل كره وضاح حياته وأصبح يتمنى الموت بعد قصته مع روضته. أم هل كان على جهل بكتاب الخليفة الذى يحذر من التشبب بزوجته او حتى احدى جواريها. ان الشاعر المعروف قيس بن عبد الله الرقيات رأى أم البنين وأعجب بها ولم يتمالك ان قال شعرا تشبب فيه بها وأنشده لبعض اصحابه لكنه رجاهم أن يكتموا عليه، وألا يبوحوا بسره ابداً، والشاعر كثير ايضا قبل دعوة ام البنين وحضر مجلسها لكنه لم يجرؤ على التشبب بها وهاب ذلك، فاحتال بأن تشبب بواحدة من جواريها.

اما وضاح فقد قبل اليد الممدودة والقلب المفتوح على مصراعيه ..

حتام نكتم حزننا حتاما

وعلام نستبقى الدموع علاما

ان الذي بي قد تفاقم واعتلى

ونما وزاد واورث الاسقاما

قد أصبحت أم البنين مريضته

نخشى ونشفق ان يكون حماما

يارب امتعنى بطول بقائها

وأجبر بها الأرمال والأيتاما

وأجبر بها الرجل الغريب بأرضها

قد فارق الاخوال والاعماما

وتتطور العلاقة بين الشاعر وزوجة الحاكم .. فيسافر معها الى دمشق، بعد ان وعدته بأن تقدمه للخليفة ليمدحه، وان تقوى مركزه لديه وبالفعل يلتقى وضباح اليمن بالوليد بن عبد الملك ويمدحه.

وتفتح ام البنين بيتها للشاعر الذي فتنت بجماله وظرفه وموهبته في الشعر فيقيم عندها، وتطول جلساتهما، ويثور الهمس، كما يحدث دائما فليس عاديا ان تتصرف زوجة الحاكم في حياتها الخاصة بهذه الحرية خاصة وانها ام ابنة عبد العزيز. وتعلو الهمسات حتى تتحول الى شائعات تصل الى سمع الخليفة وابنه ويقرر الخليفة قتل وضاح اليمن، ولكن ابنه عبد العزيز يرجوه ألا يفعل قائلا: "إن قتلته فضحتنا وحققت قوله، ويتوهم الناس أن بينه وبين أمى ريبة". وينصحه الابن بأن يفعل مع وضاح ما فعله معاوية بأبى دهبل، فإنه لما تشبب بابنته شكاه

يزيد بن معاوية وسأله ان يقتـــله فـقال: اذا تحقق قوله، ولكن تبره وتحـسن الـيه فيسـتحي ويكـف ويكذب نفسه.

كانت أم البنين تحتفظ في بيتها بعدد من الصناديق، وكانت إذا ما خشيت أن يرى حبيبها أحد أخفته في صندوق معين. وهو تصرف غاية في السذاجة بالطبع، فالكبراء والامراء دائما ما يكونون محاطين بالعديد ممن يحصون خطواتهم ويسجلون عليهم كل تحركاتهم. وأحد هؤلاء عبد أرسله الخليفة ذات يوم بصندوق من الجواهر الى ام الوليد، كأنه يعتذر عن اهماله لها وانشغاله بأمور الحكم وبتثبيت دعائم حكم الامويين، وبالذات آل مروان جده وجدها. ورغب الخادم الخبيث في أن يبتز أم البنين وانتهز الفرصة ليطلب لنفسه ما لا حق فيه. فأومأ بعينه الي الصندوق وقال لمولاته: يا مولاتى هبيني حجرا من تلك الجواهر. لكنها أدركت الحيلة، فسبته ورفضت، فعاد الى الخليفة وأخبره بأمر وضاح والصندوق.

استمع الخليفة في ذهول لتلك الحكاية، لكنه تمالك نفسه فسب الخادم وعاقبه أشد العقاب ثم لبس نعليه واسرع الى زوجته وأم أبنائه، فوجدها جالسة في بيتها تمشط شعرها،

وبطرف عينيه لمح الصندوق الذى وصفه الخادم وصفا دقيقا لكي يفرقه عن بقية الصناديق. وتأمل هذا الحوار الذى أنقله لك من كتاب الأغانى حرفيا.

قال الخليفة: يا أم البنين هبينى صندوقا من صناديقك، فقالت: كلها لك يا أمير المؤمنين. قال ما أريدها كلها وانما أريد واحدا منها. فقالت له: خذ أيها شئت. قال: هذا الذى جلست عليه. قالت: خذ غيره، فان لى فيه أشياء أحتاج اليها. قال ما أريد غيره. قالت خذه يا امير المؤمنين. فدعا بالخدم وأمرهم بحمله، فحملوه حتى انتهوا به الى مجلسه. ثم دعا عبيدا له فأمرهم فحفروا بئرا في المجلس عميقة، حتى وصلوا الى الماء، ثم دعا بالصندوق فقال مخاطبا من بداخله: يا هذا! انه بلغنا شئ ان كان حقا كفّناك ودفنّاك ودفنا ذكرك وقطعنا اثرك الى آخر الدهر، وان كان باطلا فإنا دفنا الخشب، وما أهون ذلك! ثم قذف به في البئر وهيل عليه التراب وسُويت الارض وردُ البساط الى حاله وجلس الوليد عليه، ثم مارئى بعد ذلك اليوم لوضاح اثر في الدنيا الى هذا اليوم. وما رأت ام البنين لذلك اثرا في وجه الوليد حتى فرق بينهما الموت.

هكذا تقول حكاية أبى الفرج. ولا ندر هل هى حكاية خيالية أم حقيقية، وما مقدار الخيال فيها ومقدار الحقيقة. لكنها على أى حال تمثل قدرا كبيرا من حياة المجتمع الاسلامى في بدايته منذ اثنى عشر قرنا.

ومسكين ذلك الشاب الوسيم الذى أهلكه جماله، والذى كان يحضر مواسم اللعرب مقنعا خوفا من الحسد، وحذرا على نفسه من فتنة النساء.

ويالها من نهاية مؤسفة .. أن يدفن حيا شاعر أخلص لحبيبته الأولى حتى بعد ان اصيبت بالجذام، وظل على وفائه لحبها حتى داهمته فتنة السلطان فلم يقو على المقاومة، وانزلق إلى الهاوية.

الأذن تعشق قبل العين أحيانا

بشـار وعبـدة

هل أحب بشار عبدة؟!

سؤال لابد وان يدور في عقلك وانت تقرأ مئات الاشعار التى كتبها الشاعر الاموى المخضرم الكبير، وكلها موجهة إلى عبدة أو عبيدة كما كان يدللها أحيانا ..

ولم يكن بشار بن برد شاعرا رقيقا أو رجلا وسيما، وانما كان ضخما مجدورا طويلا جاحظ المقلتين قد تغشاهما لحم أحمر، وقد ولد كفيفا، وقال عن نفسه:

عميت جنينا والذكاء من العمى

فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاض ضياء العين للعلم رافدا

لقلب اذا ما ضيع الناس حصلا

فهو اذن لم يكن على وسامة ورشاقة كي يلفت نظر النساء إليه، ولم يكن ذا بصر لينعم برؤية الجمال ويفتن بمحاسن الجميلات، فهو وان حرم نعمة البصر إلا انه لم يكن أعمى البصيرة، فكان يشبه الأشياء ببعض فيأتي بما لم يقدر البصراء أن يأتوا بمثله.

كان الشاعر بشار بن برد يدهش معاصريه بتشبيهاته القوية،ويغلبهم بلسانه الحاد وهجائه المقزع. لقد كان شاعرا موهوبا لاشك في ذلك، وكان يمتلك أدواته الخاصة وله كلمات كثيرة استخدمها ولم يسبق لشعراء آخرين ان استخدموها، ذلك انه كان حريصا على الاغتراف من لغة البادية التي أمضى بها شطرا من عمره ..

فهل تعلم بشار حب المرأة في البادية؟!

الغريب أن الكتور طه حسين الذي يعترف صراحة بأنه لا يحب بشارا ولا يميل إليه، شخصا وشعرا، يقول عن شعره: وجملة القول في بشار انه كان شاعرا غزير المادة جدا، ولكن الجيد في هذه المادة لم يكن صادقا في شعره ولا مخلصا، وانما كان يتكلف المعانى في أكثر الاوقات، وكان يتكلف الالفاظ والأوصاف، لم يكن محببا ولا جذابا، ولا لينا رقيق الطبع والحاشية، وانما كان قويا جبارا، مبغضا الى الناس، مبغضا لهم.."

يقول عن شعر بشار في الغزل: والغريب أنك لا تجد بشارا يسف في اللفظ إذا مدح أو تعرض لفن من فنون الشعر الا الغزل والهجاء .... ولهذا كان يتخير اذا تغزل ايسر الالفاظ والاساليب. وأدناها وأشدهاشيوعا في النساء وفتيات الهوى، كأنه كان يريد ان يفهمه النساء والفتيات، وان يتأثرن به .."

واعتقد أن د. طه حسين ظلم بشار بن برد كثيرا، تماما كما فعل معاصره اسحق بن ابراهيم الموصلي. لقد كرها شخصية الرجل، فرفضا الشاعر ولو نحينا جانبا منا قرأناه عن

بشار بن برد من حكايات وطرائف في كتاب الأغانى تدل كلها على أنه كان سليط اللسان، قاسيا في هجائه، جلفا في تصرفاته مع أقرانه من الرجال، ثم نظرنا إلى شعره في الغزل وبالذات في عبدة، فإننا سنجد بشارا آخر. بشارا يذوب رقة وحنانا، تسيل دموعه شوقا إلى حبيبته، ويودعها بزفرات حارة عندما تتزوج رجلا آخر فيقول لامرأة تدعى خشاب:

أخشاب حقا أن دارك تزعج
وان الذى بينى وبينك ينهج
فواكبدا قد انضج الشوق نصفها
ونصف على نار الصبابة ينضج
وواحزنا منهن يحففن هودجا
وفي الهودج المحفوف بدر متوهج
بكيت وما في الدمع منك خليفة
ولكن احزانى عليك توهج

فبشار كان عاشقا للمرأة، لا يخفى افتتانه بالنساء قال رجل مرة لبشار يعابثه:

يا أبا معاذ، أيعجبك الغلام الجادل (أى اليافع الذى قوي واشتد) فأجابه بشار بكل صراحة:

لا، ولكن تعجبنى أمه.

وسئل مرة: أى متاع الدنيا آثر عندك؟ فقال:

طعام مُزّ، وشراب مر، وبنت عشرين بكر.

وعلى الرغم من ولعه للنساء، ألا أنه لم يكن يجبرهن على شئ، وعندما حاول مرة أن يقبل جارية لصديق له، وقاومته شعر بالندم الشديد وراح يقدم اعتذاره لها ولصديقه شعرا:

اتوب اليك من السيئات
واستغفر الله من فعلتى
تناولت مالم أرد نيله
على جهل امرى وفي سكرتى
ووالله والله ما جئته
لعمد ولا كان من همتي
والا نمت اذا ضائعا
وعذبنى الله في ميتتى

فمــن نـــــال خيرا على قبلــة

فــلا بــارك اللــــه فـــي قبلتـــى

كان حب بشار للنساء صادقا، اذ كان يعتمد على ما كان يسمعه منهن، وليس على جمالهن. كانت اذنه ذات موهبة خاصة في التقاط الصوت الانثوى الرخيم الذي يدل على شخصية صاحبته، وكلام المرء يفصح عن عقليته وروحه. ونراه يقول:

قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم

الاذن كالعين توفى القلــب مــا كانــا

ما كنت اول مشغوف بجاريـــة

يلقـــى بلقيانهـــا روحـــا وريحـــانا

ياقوم أذنـــي لبعض الحى عاشقـة

والأذن تعشـــق قبل العين أحيانــا

وقد تكرر هذا المعنى كثيرا في شعره، "ان الفؤاد يرى ما لا يرى البصر"، "فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب"

"القلب راء مالا يرى البصر"

فكأنه يشرح لمن كانوا يعيرونه بالعمى ويتهمونه بالكذب والنفاق، وكأن الكفيف ليس من حقه أن يحب ويهوى.

يزهدني في حب عبدة معشر
قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى
فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الاذنان الا من القلب
وما الحسن الا كل حسن دعا الصبا
والف بين العشق والعاشق الصب

ولست أرى في هذا الشعر العذب أى تكلف أو صنعة، ولا تهالكا على اللذة وافحاشا في هذا التهالك وافتتانا فيه ايضا .. كما يرى د. طه حسين الذى يعترف صراحة أنه لا يقرأ كل ديوان بشار لأنه لم يكن قد نشر كاملا في زمنه. ولو كان د. طه حسين أمعن قليلاً في شعر بشار بن برد في محبوبته عبدة لغير حكمه عليه، فلا شك ان شعر بشار في عبدة لم يكن من

ذلك الغزل الذي يرص فيه الشاعر مجموعة من الكلمات والمعانى المكررة، وإنما كان تعبيرا صادقا عن مشاعر مضطربة وعقل حائر وقلب معذب:

ياقلب مالي أراك لا تقر
إياك اعنى وعندك الخبر
اضعت بين الألمى مضوا حرقا
أم ضاع ما استودعُوك اذ بكرو
فقال بعض الحديث يشغفني
والقلب راء مالا يرى البصر

ولقد ادركت النساء صدق مشاعر بشار، فتعلقن به، وكن يحضرن مجلسه، وينصتن في شغف إلى حديثه، ويرددن اشعاره، بل كن يلجأن إليه إذا مات لأحدهن قريب فيسألنه أن يقول شعرا ينحن عليه به، وكان يرفض أن يعطيهن الشعر إلا اذا أكلن من طعامه وشربن من شرابه. وقد ظل حتى آخر أيامه يحب التحاور معهن، ويعجب بما يقلنه له. قالت امرأة ذات يوم بعد أن شاب شعره: أى رجل أنت لو كنت أسود اللحية والرأس!

قال بشار: أما علمت ان بيض البزاة أثمن من سود الغربان! فقالت له: أما قولك فحسن في السمع، ومن لك بأن تحسن شيبك في العين كما حسن قولك في السمع!

فكان بشار يقول: ما أفحمني قط غير هذه المرأة.

وقالت له أخرى: ما أدرى لم يهابك الناس مع قبح وجهك! فقال لها: ليس من حسنه يهاب الاسد.

كانت عبدة واحدة من النساء اللاتى يترددن على بشار ويتحاورن معه، وقد تعلق بها، فاتفق مع خادمه على ان يتبعها بعد ان ينتهى المجلس ويكلمها ويعلمها باعجاب سيده بها. ولا نعرف هل فعل الخادم ذلك أم لا، واذا كان قد فعل فبماذا اجابت عبدة. لكن الذى نعرفه ان بشار ظل يقول فيها شعرا من اعذب ما قيل في الحب، ويبدو أنها كانت سعيدة بذلك فكانت ترسل له السلام، بعد زواجها، وتعبر عن شوقها له فيرد عليها بالشعر قائلاً:

عبد انى اليك بالاشواق
لتلاق وكيف لى بالتلاقى
انا والله اشتهى سحر عينيك
واخشى مصارع العشاق

واهاب الحرس محتسب الجند.

يلف البرئ بالفساق

فهو لايجرؤ على ملاقاتها خشية الحراس والمحتسب وإنما يطلب منها ان تزوره هى:

ياعبد زوريني تكن منة

لله عندى يوم ألقاك

والله ثم الله فاستيقنى

انى لارجوك واخشاك

ياعبد انى هالك مرنف

ان لم اذق برد ثناياك

فلا تردي عاشقا مدنفا

يرضى بهذا القدر من ذاك

كل هذا التذلل والرجاء من رجل كان الرجال يخشون هجاءه، ومنهم الاصمعى وسيبويه والاخفش وكان بعضهم يدفع له آلاف الدنانير كى لا يهجوه. ويقال إن الخليفة المهدى نفسه طلب من بشار ألا يتشبب بالنساء، لأنه شعر أنهن قد شغفن بأشعاره، وان هذه الاشعار قد تفسدهن، ومع ذلك فقد انتشرت تلك الاشعار وذاع صيتها وغناها أشهر مغنى ذلك العصر.

الحب من أول نظرة

أبو نواس ..
ومعشوقته جنان

أبو نواس، الشاعر المعروف الذى عاصر الخليفة المهدى ثم الرشيد ثم الأمين، مات قبل أن يدخل الخليفة المأمون بغداد ...

قرأنا عنه وله كثيرا، ولكن آخر ما يتوقعه المرء أن يتأكد حب أبى نواس لجارية من بنات عصره، كانت تدعى جنان. قال أغلب الذين كتبوا عن أبى نواس ان حبه لجنان كان صادقا، وكان حقيقة لم ينكرها أبو نواس ولا انكرها أحد ممن عاصروه سوى قلة منهم شكوا في جديته ...

فما هى حكاية أبى نواس وجنان والحب من أول نظرة ..

كان أبو نواس شاعرا فذا أجمع شعراء عصره على تميزه حتى أن الشاعر أبا العتاهية وسط أحد أصدقائه ليطلب منه ألا يقول الشعر في الزهد حتى لايتفوق عليه.

وقد اشتهر أبو نواس بالمجون والزندقة، ولم يكن يخفى ذلك أو ينكره بل كان يجاهر بشذوذه، ويتغزل علنا في الغلمان ويحكى عن مغامراته معهم. ويقول أبو الفرج الاصفهانى ان أهل أبى نواس حاولوا أن يزوجوه حتى ينصلح حاله فأبى عليهم ولكنهم ظلوا يلحون حتى اذعن اخيرا فزوجوه جارية جميلة من أهل بيته، فلما دخل بها أعرض عنها، وخرج إلى غلمان كانوا يأتونه، ثم لما أمسى طلقها ثم انشد:

صاحبة القرقر قومى ارحلى

تنقبى صاغرة واذهبى

مري فكم مثلك من حرة

رائقة لم تك من مطلبى

لاأبتغى بالطمث مطموقة

ولا أبيع الظبى بالارنب

وعلى الرغم من ذلك ذكرت الاخبار أنه كان يعجب ببعض الجوارى وأنه عشق جارية وطلبها من صديقه ذات مرة، وأصر على أن يهديها له، واخيرا حدث للحسن بن هانئ، مالم يكن يتوقعه هو ولا أصدقاؤه .. وقع في الحب، الحب من اول نظرة كما يحدث لشاب غرير في بداية الصبا وليس لديه أية تجارب في الحياة. ويقول لنا صاحب الأغانى: إن أبا نواس لم يصدق في حب امرأة غيرها. وكان اول كلفه بها انها مرت، وهو جالس في المربد مع فتيان من أهلها يتنزهون وينشدهم، فأبرزت عن وجه بارع الجمال، فجعل ينظر إليها، فقال له أصحابه: خرجت من حدك الذى كنت تنتسب إليه، يعنى من حب الغلمان الى حب النسوان، فأنشأ يقول:

انى صرفت الهوى الى قمر
لم تبتذله العيون بالنظر
اذا تأملته تعاظمك الا
قرار في أنه من البشر
ثم يعود الانكار معرفة
منك اذا قسته الى الصور
مباحة ساحة القلوب له
يأخذ منها أطايب الثمر

وشغف بها حبا وهام بها، وقال فيها أشعارا كثيرة وشكا وجده بحبها وهو لا يعرفها، وسأل عنها فلم يقع على خبر منها بعد اليوم الذى رآها فيه، فقال:

كما لا ينقضى الارب

كذا لا يفتر الطلب

وتناقل أهل البصرة شكايته من حبها وشعره فيها، وأكثروا ذكره في كل محفل وجمع.

فمن هى تلك المرأة التى قهرت شذوذ ابى نواس وانتصرت على ندمائه من الغلمان والمجان واعادت إليه طبيعته التى خلقه الله عليها!

تلك كانت جنان جارية آل عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى المحدث ويصفها أبو الفرج قائلا: " كانت جنان حلوة، جميلة المنظر، بديعة الحسن، أديبة عاقلة ظريفة، تعرف الأخبار وتروى الاشعار، وكانت مقدودة حسنة القوام". تلك اذن صفات المرأة التى لابد وان تخلب لب الرجل مهما كان فاسقا أومنحرفا، ويستوقفنا وصف الأصفهانى لجان بأنها كانت أديبة تعرف الاخبار وتروى الاشعار. أى انها لم تكن مجرد وجه

مليح وقوام معتدل بل كانت ذات ثقافة وموهبة ولم تكن امرأة متهتكة مثل أغلب جواري وقيان ذلك الزمان، بل كانت تفضل صحبة النساء على الرجال، وكانت حريصة على اداء فرائض دينها.

وقد بلغ ابا نواس يوما ان معشوقته جنان قد عزمت على الحج فقال: أما والله ما يفوتنى الحج والمسير معها عامى هذا، ان اقامت على عزيمتها، فظن مازحا، ولكنه لم يكن يمزح بدليل انه سبقها الى الخروج.

جنان اذن كانت قادرة على أن تقوم اعوجاج الشاعر الكبير، وان تعيده الى الصراط المستقيم فقد ذهب فعلا إلى الحج، واحرم، ويقول الذين شاهدوه بالحج، انه جعل ينشد الشعر، ويطرب في صوته بالليل حتى فتن به كل من سمعه يقول:

الهنا ما اعدلك

مليك كل من ملك

لبيك قد لبيت لك

لبيك ان الحمد لك

والملك لا شريك لك

ما خاب عبد سالك

انت له حيث سلك

لولاك يارب هلك

ولكن الناس لم تصدق أن أبا نواس يمكن ان يتوب عن آثامه الكثيرة بسبب حبه لامرأة. واتهمه احدهم بأنه حاول ان يلثم خد جنان، بينما هي منهمكة في لثم الحجر الاسود.

أما جنان نفسها فلم تكترث بحب أبى نواس لها وافتتانه بها، ولم تتحرك في قلبها اية عاطفة تجاهه، على الرغم من كل تلك الاشعار التى كان ابو نواس يعبر فيها عن حبه العميق لها، وكانت جنان تسخر من ابى نواس، حتى انها خرجت ذات يوم هي وصاحبة لها حتى التقيا بأبى نواس، فلما رآها كاد ان يذهب عقله وتحير وراح يدبر ويقبل، أى انه تصرف كتلميذ مراهق التقى مصادفة بمن يحب، وراحت صاحبة جنان تمازحه وتقول له: فاجعلني رسولاً إليها، فلعل الله ان يمن علي وعليك. فلما بلغ ذلك جنان غضبت من صاحبتها: وقالت لها: مثل هذا الكلب تطمعينه فيّ!

وكان أبو نواس يعلم ان جنان تحتقره وتسبه فقد تقرب من الثقفيين الذين كانت تنتمى اليهم، واصبح يزورها ويتحين الفرص ليبعث اليها بالرسائل التى تفيض حبا ووجدا، فكانت تسبه أمام من يرسلهم إليها وتقول انه مخنث كذاب حتى انه انشد في ذلك يقول:

جنان تسبنى ذكرت بخير
وتزعم اننى مزق خنيث

وان مودتى كذب ومين
وانى للذى اهوى بثوث

وما صدقت ولا رد عليها
ولكن الملول هو النكوث

ولي قلب ينازعنى اليها
وشوق بين اضلاعى حثيث

رأت كلفي بها ودوام عهدى
فملتنى كذا كان الحديث

شكته جنان يوما الى مولاها، فشتمه ثم ندم على شتمه - هكذا حكى ابو نواس نفسه - فذكر له ذلك. فقال: من سبني من ثقيف فانني لن اسبه .. ثم اضاف "فكان ذلك مما عطفها ورقق قلبها، وكان اول الاسباب الى وصلها". ويبدو ان ابا نواس كان يتخيل ان جنانا قد رضيت عنه وقبلت ان تلتقي به، وان قلبها لان له واصبحت تحبه، ثم فجأة تجهمت في وجهه فغضب وهجرها مرة فارسلت اليه رسولا لتصالحه، فرده ولم يصالحها ثم رآها في النوم تطلب صلحه، فقال:

دست له طيفها كيما تصالحه
في النوم حين تأبى الصلح يقظانا
فلم يجد عند طيفي طيفها فرجا
ولا رثى لتشكيه ولا لانا
حسبت ان خيالي لا يكون كما
اكون من اجله غضبانا

فكيف يستقيم هذا الادعاء مع ما ذكره هو عدة مرات من انها كانت تشتمه كلما تحدث أحد عنده، وكانت تلقبه بالكلب والمخنث والكذاب وتشكوه لمولاها وقال في ذلك:

وبأبي من اذا ذكرت له

وطول وجدي به تنقصني

لو سألوه عن وجه حجته

في سبه لي لقال يعشقني

نعم الى الحشر والنشر نعم

اعشقه أو الف في كفني

لا انثني ويك عن محبته

ما دام روحي مصاحبا بدني

اصيح جهرا لا استسر به

عنفني فيه من يعنفني

يا معشر الناس فاسمعوه وعوا

ان جنانا صديقة الحسن

وكانت النتيجة ان حجب اهل جنان جاريتهم عن ابي نواس، وارسلوها الى دار لهم في بلدة اخرى تدعى حكمان لكي ينساها، فكان يقصد الجبل بالبصرة فيسأل كل من اقبل من تلك الناحية وينشد:

اســـأل القـــادمـــين من حكمان

كـيف خلفتـــما ابـــا عثـــمان

وابـا مـــية المـهذب والـــما

مـــول والمـــرتجى لـريب الزمان

فيقولان لـــى جنـــان كمـــا سر

ك في حـــالـــها فسـل عن جنان

مـــالهـــم لا يبـــارك الله فيهم

كيف لم يـــغن عـــندهـــم كتمانى

صرت كالسئن يشرب الماء فيما

قال كســـرى بعـــلة الـريـحان

او كما قيـــل قبـــل ايـــاك اعنى

واسمـــعوا يـــامـــعاشر الـــجيران

هذه الابيات ترجمة للمثل السائر "الكلام عنك يا جارة" فهو يتظاهر بالسؤال عن رجال آل ثقيف ولكن الكل يعلم انـه لا يعنيه الا جنان ، وقد بلغ ذلك الخبر مولاة جنان فبعثت اليـه: ان

اردت وهبتها لك. ولكن جنان ما نعت في الزواج منه، واشترطت عليه الا يعود الى شذوذه، ولم يستطع هو ان يعدها بذلك.

بعد هذا كله هل احب ابو نواس جنانا، ام انه كان يعبث كما قال بعض معاصريه. ولو ان جنانا بادلته حبا بحب فهل كان تاريخه سيتغير وسلوكه سيستقيم؟! هذه الاسئلة ما تزال في حاجة لمن يجيب عليها ولكن الثابت ان شعر ابى نواس في محبوبته جنان كان من ارقى واعذب واصدق ما قيل في الحب.

الفقيه وقــع فــي الــحب

القــس وسلامــة

هو عبد الرحمن بن أبى عمار الجمشى من أهل مكة ..

وهى سـلامة، مولـدة مـن مولـدات المدينـة كـانت مملوكـة لسهيل بن عبد الرحمن بن عوف ..

هو كان يوصف بأنه من أعبد أهل مكة، وقد لقبوه بـالقس لكثرة تعبده ... وهـى كـانت من اشـهر مطربـات عصرهـا، وكانت ايضاً سيدة صالون من الطـراز الاول، تستقبل الشـعراء فينشـدونها وتنشـدهم الشعر، ويتغنـون بجمـال صوتهـا وظرفهـا ويتنافسون للحصول على رضائها.

حكايتها اشتهرت وشاع خبرها في الربع الاخير من القرن الهجرى الاول، اثناء خلافة عبد الملك بن مروان وابنائه.

والحكاية بدأت بصدفة، ولكنها كانت خيراً من الف ميعاد. فلأمر ما ذهب الناسك المتعبد الى المدينة.

والحجاز في صدر الاسلام كانت الحياة فيه - كما يصفها لنا كاتب الاغانى - حياة فرح ومرح ومغنى وطرب الى جانب الزهد والورع والتقوى والحديث والفقه.

ويصف لنا الدكتور احمد امين اهل الحجاز في ذلك الوقت بالظرف والرقة في الشعور، وانهم في ذلك فاقوا أهل العراق والشام، حتى لقد كان فقهاء الحجاز اوسع صدرا واكثر تسامحا تجاه الغناء والمغنين من أهل العراق.

وكان لمغنى مكة مذهب في الغناء ولمغنى المدينة مذهب. وكان بين الفريقين مفاخرة، واقبل الناس على الغناء يسمعونه. ولعلهم كانوا يقارنون بين هذا المغنى وذاك، وبين تلك المغنية والاخرى. ولعل الفقهاء لم يكونوا ببعيدين عن هذه الروح حتى ان الامام مالك بن انس اعترف بأنه نشأ في ذلك الوسط وكان يتبع المغنين ويأخذ عنهم. أى أنه كان يتمنى ان

يصبح مغنيا، ولكن امه نصحته بأن يتجه للفقه قائلة: يابنى ان المغنى اذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فانه لا يضر معه قبح الوجه.

ويحكى لنا ابو الفرج الاصفهانى عن ذلك العصر ان المغنين كانوا يخرجون الى الحج قوافل. واجتمع في زمن واحد من مشاهير المغنين والمغنيات في الحجاز جميلة وهيت وطويس والدلال وعزة الميلاء وحبابة وسلامة وبلبلة ..... الخ. ويرون ان هؤلاء حجوا، فتلقاهم في مكة سعيد بن مسجح وابن سريج والفريض ..... الخ. من المطربين وخرج أهل مكة من الرجال والنساء ينظرون إلى حسن هيئتهم وازيائهم المبتكرة ويرحبون بهم.

كان عبد الرحمن بن أبى عمار مارا فسمع غناء سلامة، فوقف وراح ينصت، وقد اعجبه صوتها واداءها الى الحد الذى جعله غير قادر على التحرك من مكانه. ورآه مولاها، ولاشك أنه عرفه وعرف قدره حتى انه رحب به وقال له: هل لك ان اخرجها اليك او تدخل فتسمع! فأبى. فقال مولاها: انا اقعدها في موضع تسمع غناءها ولا تراها فأبى. فلم يزل به حتى اخرجها فأقعدها بين يديه، فتغنت له.

وصار عبد الرحمن بن أبى عمار يتردد على دار أبى سهيل مدة طويلة فيستمع إلى سلامة وهى تغنى، ثم يتحدثان معا وسط الناس الى ان سنحت لهما الفرصة ذات يوم لينفردا معا دون رقيب. خرج مولى سلامة لبعض شأنه وخلف "القس" عبد الرحمن بن أبى عمار مقيماً لدى سلامة وكانت حكايتهما قد ذاعت بين أهل مكة، واصبح الناس يتهامسون بما يجرى في دار سهسيل، وذلك الفقيه الورع الذي تحول الى عاشق متيم بالمغنية.

ولعل سلامة ارادت ان تطور العلاقة بينهما فهى ايضا قد شغفت بذلك المعجب المفتون وبأدبه وشخصيته المهذبة. وهى جارية، يستطيع لو اراد ان يشتريها من مالكها، فتصير ملك يديه، أو يستطيع ان يشتريها منه، ويحررها ثم يتزوجان على سنة الله ورسوله ..

لابد ان يحدث شئ لينقذ سمعة الفقيه، ويخفف عن قلبها لوعة الاشتياق ومرارة الحيرة والضياع. إنها ـ مثل اى انثى ـ تتوق الى حياة مستقرة هانئة حيث يمكنها ان تنعتق من حياة الليل والسمر والغناء.

وانقل لكم مايرويه ابو الفرج عندما انفرد العاشقان في خلوة. قالت له: أنا والله أحبك: قال: وأنا والله احبك. قالت: وأحب ان اعانقك وأضع فمى على فمك. قال: وانا والله احب ذلك. قالت: فما يمنعك! فوالله ان الموضع خال.

ولا ينبغى ان نحكم على هذا الحوار بتفكيرنا اليوم.

فسلامة كانت جارية، وكان اقتناء الجوارى مباحا في صدر الاسلام. وكان بامكان مولى الجارية ان يهبها لمن يحب. وكثيراً ما كان الرجل يسأل صاحبه ان يهبه احدى جواريه. ذلك اذن عرف شائع في ذلك العصر، وكانت سلامة تتصرف بعقلية الجارية.

لكن عبد الرحمن بن ابى عمار كان له موقف آخر. فلابد انه خشى على حياته من سيطرة الحب. لقد ادرك انه اذا ما امتلك سلامة فلن ينشغل بشئ آخر سواها. ولعلها ستغير حياته تماما، وتصرفه عن الفقه الذى تخصص فيه، والورع الذى عرف عنه حتى ان الناس كانوا يشبهونه بعطاء بن رباح، احد التابعين ومن أجل فقهاء مكة وزهادها، ولعله كان يتطلع لأن

تكون له مكانته، فيجلس في المسجد الحرام ويجتمع الناس حوله، فيفتيهم ويحدثهم ويعلمهم، كما كان عطاء يفعل.

تذكر عبد الرحمن أحلامه وطموحاته في ان يصير واحدا من اشهر فقهاء مكة، فما ان تطور الحديث بينه وبين سلامة الى الحد الذى دعته فيه صراحة الى عناقها حتى اجابها: يمنعنى منه قول الله عز وجل "الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين" فأكره ان تحول مودتى لك عداوة يوم القيامة ثم خرج من عندها وهو يبكى فما عاد اليها بعد ذلك.

هل صعدت سلامة حكايتها مع عبد الرحمن لكي تصل الى النهاية وتحسم موقفه تجاهها، فاما اختارها او مضى عنها بلا عودة؟!

ان الحكاية تتوقف عند مغادرة عبد الرحمن دار سلامة ولا تقول لنا هل استدعته مرة أخرى، او حاولت ان توسط بينها وبينه واحدا من الشخصيات المعروفة التى كانت تتردد عليها وتستمع لغنائها، كالأحوصي أو قيس بن عبد الله الرقيات اللذين كانا يعلمان بأمر عشق القس لها، فقال ابن قيس الرقيات في ذلك:

لقد فتنتـا ريـا وسـلامة القسـا

فلـم تتركـا للقـس عقـلا ولا نفسـا

فتاتان امـا منهمـا فشـبيهة الـ

هـلال واخـرى منهمـا تشـبه الشمسـا

وريا اخت سلامة وكانت تلازمها اثناء زيارة القس لها.

أما الاحوصى فقد أنشد في سلامة:

اسـلام انك قـد ملكت فـاسجحـي

قـد يملـك الحـر الكريـم فيسـجح

منـى علـى عـان أطلـت عـناءه

فـي الغل عنـدك والعنـاة تسـرح

انـي لانصحكـم واعلـم انـه

سيان عنـدك مـن يغـش وينصـح

واذا شـكوت الـى سلامـة حبهـا

قـالـت أجـد منـك ذا أم تمـزح

وعلم الخليفة يزيد بن عبد الملك بأمر سلامة فقال:

ما يقر عيني ما أوتيت من امر الخلافة حتى اشترى سلامة وحبابة الجاريتين. فأرسل الرسل إلى المدينة فاشتروا سلامة بعشرين ألف دينار. وعلم الخبر في المدينة، فتوافد الناس على سلامة ليودعوها ويسلموا عليها، وسارت هى في موكب كبير يشيعها الخلق من أهل المدينة، فلما بلغوا مكانا يدعى سقاية سليمان بن عبد الملك، قالت للرسل لابد ان اتوقف لأودع القوم فأذن للناس عليها، فانقضوا حتى ملأوا فناء القصر الذى كانت تستريح فيه، فوقفت بينهم ومعها العود وراحت تغنى:

فارقونى وقد علمت يقينا

ما لمن ذاق ميتة من اياب

ان اهل الحصاب قد تركونى

مولعا موزعا بأهل الحصاب

ولم تزل تردد القصيدة حتى راحت، وانتحب الناس بالبكاء عند ركوبها، فما بقى احد إلا بكى.

هكذا كان تأثير الفن على أهل المدينة قبل ان ينصرم قرن واحد على هجرة رسول الله (ص) إليها. كانوا يتذوقون الشعر الجميل ويطربون للحن ولصوت المغنية الموهوبة وادائها

الشجى. وكانوا يطلقون لأنفسهم العنان فيعبرون بحرية عن اعجابهم الشديد بذلك الفن والموهوبين فيه. حتى ان واليا جديدا ولى على المدينة ونصحه البعض بأن يغلق دور اللهو ويطهر المدينة من الغناء والمجون. فاستمع للنصيحة وانذر اهل الطرب ان يخرجوا جميعا من المدينة وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام. إلا ان احد معجبى سلامة تحايل على الوالى الجديد حتى جعله يستمع لغنائها، فقام الوالى من مجلسه فقعد بين يديها ثم قال: لا والله فما مثل هذه تخرج. قال ابن عتيق: لايدعك الناس يقولون اقر سلامة واخرج غيرها. قال: فدعوهم جميعا فتركوهم جميعا.

اما الخليفة فما استقبل الجاريتين: سلامة وحبابة حتى قال: انا الآن كما قال الشاعر:

فالقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عينا بالاياب المسافر

واما الفقيه عبد الرحمن بن ابى عمار، فلم تذكر عن فقهه الكتب شيئا، وإنما فقط خلدت اشعاره التى قالها في حبه لسلامة

ومنـــــها تلـــك القصـــيدة التـــى كـانت اول مـا غنـت سـلامة لوليد بن اليزيد:

الا قل لهـذا القلـب هـل انـت مبصـر

وهـــل انت عن سلامة اليوم مقصر

الا ليت انـي حيـن صـار بهـا النـوى

جليس لسلمى حيـث مـاعج مزهـر

وإنـــى اذا مـا المـوت زال بنفســها

يـزال بنفسى قبلهــا حـــين تعــبر

اذا اخـذت فـي الصـوت كـاد جليســها

يطـــير اليهـــا قلبــه حيـــن ينظـر

كــــان حمـــامـــا راعيـا مؤدبـــا

اذا نطقـــــت مـن صدرهـا يتغشـــمر

والسلطان ... أيضاً ...

على أن القصص التي رويتها جميعا لو تشابهت في بعض التفاصيل فهي تختلف تماما عن قصة يزيد وحبابة. ان عدوى الحب والموت في سبيل المحبوبة والولع بها الى حد العزوف عن الحياة بعد مماتها تصل الى البلاط الملكي، بل الى قلب أمير المؤمنين نفسه.

كان قيس وجميل وكُثير وعروة من عامة الشعب، أما يزيدبن عبد الملك فقد كان من خلفاء الدولة الاموية، ولي الحكم بعد عمر بن عبد العزيز الذي كان معروفا بزهده وعدله وورعه. أما يزيد فكان يختلف عنه تماما عشق جارية تدعى حبابة، كانت رائعة الجمال، وكانت ايضا تمتلك صوتا عذبا

وتغنـــى فـي نفس القصـر الـذى عاشـت فيــه المغنيــة العربيــة الشهيرة سلامة.

هام يزيد بصوت حبابة فلما رآها وقـع فـي حبهـا وعـرف عنه ذلك، حـــتى ان زوجـــته عـــندمـــا فكرت فـي ان تهديـه هدية تملــكه بــها قدمت له حبابة هدية!

كان يزيد خليفة عندما دخلت عليه زوجه سعدة، وسـألته: هل بقى عليك من الدنيا شئ لم تنله؟ رد الخليفة بـلا تـردد: نعـم ... الغالية، وكانت حبابة، تلقب بالغالية. صفقـت زوجـة الخليفـة فدخلت حبابة وقالت سعدة لزوجها: هذه هى، وهـى لـك،فسـماها حبابـه وعظـم قـدر زوجته سـعدة عنـده، بـل اصبحـت تسـتخدم الجارية كي تنال منه ماتريد، وكانت قد اشترطت عليها ذلك قبل ان تقدمها لزوجها.

ويحكـى أن الخليفــة يزيـد بـن عبـد الملـك ازداد ولعـــا بالجارية، فكان ينصرف عن امور الدولـة ويقضـى اغلـب وقتـه معها يستمع لأغانيها ويشرب الخمر. وضج بذلك رجال البـلاط، فحالوا بينه وبينها فترة، ولكنه عاد إليها اشد شـوقا وولعـا، وان كانت حكايات العاشقين الآخرين تتأرجح مابين الخيال والحقيقـة،

فان حكاية يزيد بن عبد الملك وحبابة تدخل في صلب التاريخ الاسلامى، وتحكى الاعاجيب عن حزنه الشديد على تلك الجارية بعد وفاتها. اما سبب الوفاة فكان حبة رمان، أو عنب، شرقت بها وهما في خلوة في قصر بالشام، وماتت أمام عينه ومع ذلك لم يتحرك، ولم يأمر بدفنها بل ظل وحده معها ولمدة ثلاثة أيام يبكى. فلما فاحت رائحة جسدها دخل عليه رجاله، وعاتبه ذوو قرابته قائلين:

قد صارت جيفة بين يديك!

هنا فقط سمح لهم ان يغسلوا الجثة ويدفنوها ثم مات بعد دفنها بخمسة عشر يوما!

ونعود الى حكايات الغرام في صدر الاسلام لنتساءل لماذا حدثت اغلبها في البادية؟!

ماذا كان بالبادية يدفع بشبابها الى تلك العواطف الجياشة، ويجعلهم يفضلون الموت على الابتعاد عن محبوباتهم ...!!

كانت البادية في القرن الأول من الاسلام تعيش في ظروف مختلفة عن الحجاز. ففى الحجاز كان المال الوفير

والجوارى من الفرس والرومان والتحول الحضارى السريع نتيجة لاختلاط العرب بأجناس متحضرة لها تقاليدها العريقة وفنونها البارزة.أما البادية فقد كانت تعيش في عزلة نسبية، غير مقطوعة الصلة بماضيها ايام الجاهلية، مبقية على تقاليدها واعرافها الموروثة، نائية بنفسها عن التيارات السياسية التى كانت تصطخب في المدن الرئيسية.

في أيام الجاهلية كانت الخمر والميسر تعد من المتع الاساسية للبدوى، وكانت العلاقات غير المشروعة تتفشى بين البدو، حيث تعودوا على احتقار المرأة والنظر الى خواصها الحسية فقط.

ثم جاء الاسلام فكان العامل الاساسى في تهذيب نفوس البدو وتعليمهم المثل الخلقية العليا، وفي حثهم على احترام انسانية المرأة ومعاملتها بشئ من الرقة والاحسان. كذلك ارتقى الاسلام بروح البدو القتالية وصرفهم عن الصراعات القبلية وحولهم الى مجاهدين في سبيل الله، يؤلفون فيما بينهم كتائب مقاتلة تشارك في فتح البلاد ونشر الاسلام فيها.

وبينما انتشر في البادية الحب العفيف الطاهر الذى يتصف بالوفاء، شاع في مدن الحجاز ما سمى بالغزل اللاهي

الذى رفع لواءه الشعراء عمر بن ربيعة والاحوص والعرجى، كانت بنت المدن ترفل في حياة كلها ترف وفراغ ولهو واقبال على الحياة، بينما بنت البادية تحجبها عن الحياة تقاليد صارمة ظلت باقية منذ عهد الجاهلية، تفرض عليها ان تعيش اسيرة الحجاب والرقابة المشددة.

وعلى الرغم من كل تلك الحصانة والمنعة في البادية انتشر الحب، وذاعت قصائد الغرام والتشبب .. أصبح للحب شهداؤه وشهيداته، وترددت أسماؤهم واسماؤهن على ألسنة المعاصرين لهم، وبقيت لتتناقلها الاجيال حتى يومنا هذا والخلاصة أنه لا الفصل بين الجنسين ولا حجاب المرأة أو نقابها، ولا التقاليد الصارمة والاعراف الموروثة يمكن ان تعوق كيوبيد عن اداء مهمته الخالدة، بل لعل هذه العوائق جميعها تشكل تحديا للحب تثيره اكثر مما تهدئه، وتؤجج ناره بدلا من أن تطفئها. ستظل حواء أبد الدهر تهفو إلى آدم، وسيظل آدم الى آخر الزمان يسعى الى حواء ... فهكذا شاء لهما خالقهما... وبهذا ستخلد البشرية ....

علي بن اديم

آخر شهداء الغرام

وحبيبته منهلة

في حكايات الحب التى ذاعت في صدر الاسلام عشاق كثيرون ماتوا حبا وذابوا وجدا وانصهرت حياتهم، فسكبوها قطرة قطرة فوق ثرى حب لم يكتمل، ولكن على بن اديم الجعفى اشتهر بأنه كان آخر شهداء الغرام ..

هذا اللقب منحه له اهل الكوفة في نهاية القرن الثانى الهجرى، أى القرن الثامن الميلادى، وراحوا يتداولون اخباره وحكاياته مع حبيبته منهلة، ويلقبونه بالعاشق. ثم جاء ابو الفرج الاصفهانى ليذكره في كتابه الخالد "الاغانى" على انه حكاية

واقعية لم يشك لحظة في حدوثها بل ينقلها عن عدة مراجع موثوق بها، ويذكر الشعر الذي قاله على بن اديم في منهلة في اكثر من مناسبة.

وحكاية على بن اديم لابد ان تستوقفنا فيها عدة امور، ونحن نسترجع تاريخ اجدادنا الاجتماعى في ذلك الوقت المبكر. فمن حكايات الاصفهانى نعلم انها حدثت في زمن ام جعفر "زبيدة" زوجة الخليفة هارون الرشيد وأم الخليفة الامين وقد عاشت ايضا في زمن الخليفة المأمون، فمن الممكن اذن ان تكون حكاية على بن اديم قد حدثت خلال حكم احد هؤلاء الخلفاء او قبلهم او بعدهم اى في الفترة من ١٧٠ إلى ٢١٨ هجرية.

الأمر الثانى الذى نحب ان نتأمله معا هو ظروف هذه الحكاية التى تجعلها تختلف تماما عن كل حكايات الحب العذرى التى سبق وناقشناها من قبل.

ان حكاية على بن اديم ومعشوقته منهلة تختلف عن حكايات قيس وكثير وجميل وذى الرمة ... الخ. فابن أديم لم يكن بدويا بل كان حضريا يعيش بالكوفة، واحدة من مدن

العراق التى أسسها العرب في بداية الدولة الاسلامية. والكوفة في تلك الفترة كانت تموج بالأفكار الجديدة والحركات السياسية وبالمؤامرات والصراعات والثورات، شأنها شأن بقية مدن العراق اثناء حكم العباسيين.

الامر الثالث ان منهلة لم تكن بنت عم على، ولا واحدة من بنات القبائل العربية المجاورة كما كان يحدث في قصص العذريين، بل كانت جارية لبعض نساء بنى عبس ويبدو ان بنى عبس احسنوا معاملتها، وارسلوها الى الكتاب لتتعلم القراءة والكتابة. فهذه الجارية التى عشقها على بن اديم لم تكن بدوية، ولم تكن عربية صميمة لأن الجوارى في ذلك الوقت كن من نساء المحاربين الذين هزمهم العرب الفاتحون، أى من الروم والفرس ... إلخ.

وكان العرب يتخذونهن رقيقا وسبايا، يتصرفون فيهن كما يشاؤون، ولم يكن الاسر مقصورا على بنات وزوجات الجنود بل على نساء الاسر الكريمة ايضا وأحيانا الاسرة الحاكمة.

ويقال ان عليا بن اديم رأى منهلة وهى تذهب الى الكتاب، فتعلق بها وهى لا تزال صبية، وكان يذهب الى الكتاب

ويظل يجلس فيه ليتـأمل فتاتـه ويتابعهـا، وهـى تتعلـم، ولابـد ان عليا اعجبه في تلك الفتاة ذكاءها وخفة ظلها وتأدبها وليـس فقـط جمالهـا، فالاصفهـانى يصفـه قـائلا: "هـو رجـل مـن تجـار أهـل الكوفة كان يبيـع البز "أى الثيـاب" وكـان متأدبـا صـالح الشـعر، يهوى جارية يقال لها "منهلة".

وكانت منهلة ترتدى السواد. أو لعله كـان لونهـا المفضـل ولذلك قال على بن اديم فيها هذه الابيات:

انـــــى لمـــــا يعـتـادنـــــى

مـــــن حـــب لابســـــة الســـواد

فـــــي فتنـــــــة وبلــــية"

مـــــا أن يطيقهـــــم فـــــؤادى

فبقيـــــت لا دنيـــــا اصبـــ

ت وفـــاتنـــــى طلـــب المعـــاد

ولم يتوقـف علـى بـن اديـم علـى مجـرد الاعجـاب بمنهلـة وقول الشعر فيها، وانما انتظر حتى بلغت سـن الـزواج واسـرع يحدث أباه في شأنها ويطلب خطبتها. ولابد ان الاب وافـق ابنـه

بعد ان رأى منهلة، أو لأنه يثق في ذوق الابن وحكمته. لانه لم يوافق فقط على طلب يد منهلة بل ذهب إلى بعض تجار الكوفة وطلب منهم التوسط له لدى المرأة العبسية التى تمتلك منهلة، ولسبب ما، رفضت العبسية تزويج منهلة من الرجل الذى هام بها وزوجتها لرجل آخر من بنى هاشم.

وها نحن نعود مرة أخرى الى نفس ما كان يحدث في البادية، فلا نعلم إن كانت البنت قد استشيرت في أمر زواجها فاختارت الرجل الآخر، أم ان احداً لم يكن يعبأ برأى النساء فيمن سيشاركهن حياتهن، وكان الاتفاق يحدث بين ولى أمر الفتاة وطالب يدها، كما لا تزال العادة المتبعة في قرانا الى اليوم.

الطريف ان عليا بن أديم لم يطق ذلك الظلم ولم يصبر بل غادر الكوفة الى بغداد حيث تقيم ام جعفر، زبيدة، زوجة هارون الرشيد وام ابنه الخليفة الامين، وطلب منها ان تساعده لكى يحصل على تلك الجارية ويتزوجها على سنة الله ورسوله. ويبدو ان ذلك كان عرفا متبعا، ان يلجأ الناس الى افراد الاسرة الحاكمة ويطلبوا مساعدتهم ليس ماديا فقط وانما اجتماعيا ايضا.

ونستطيع أن نتصور أن أم جعفر تعاطفت مع الشاب العاشق وأخرجت له توقيعا بما أحب أى خطابا توحى فيه للمرأة العبسية بالموافقة على زواج على من منهلة. ولكن بينما كان على ينتظر بباب ام جعفر، اذا بامرأة تخرج من دارها وتسأل "أين العاشق؟" فأشار الناس إليه. فقالت: "انت عاشق وبينك وبين من تحب القناطر والجسور، والمياه والأنهار، مع مالا يؤمن من حدوث الحوادث فكيف تصبر على هذا انك لصبور جسور".

وشعر على بالقلق واصابه جزع شديد فأسرع يؤجر بغلا ليسافر به عائدا الى الكوفة، وهناك علم بأمر زواج منهلة من الزجل الآخر وسفرها معه خارج الكوفة، فأنشد ابياتا غناها مطرب ذلك الزمان حكم الوادى بعد ان لحنها له ابراهيم بن ابى الهيثم تقول:

صاحوا الرحيل وحثنى صحبى

قالوا الرواح فطيروا لبى

واشتقت شوقا كاد يقتلنى

والنفس مشرفة على نحب

لم يلق عند البين ذو كلف

يوما كما لاقيت من كرب

لا صبر لى عند الفراق على

فقد الحبيب ولوعة الحب

وبالفعل لم يصبر علي على فقد منهلة فمات حزنا عليها بعد ثلاثة أيام من خروجها ... وبلغها خبره فماتت بعده فعمل أهل الكوفة لهما أخبارا، أى دونوا حكايتهما، وحفظوا أشعار على بن أديم وهى قليلة وصاروا يتناقلون الحكاية بينهم، وأصبح على بن أديم الجعفى من بنى أسد كما يقولون - آخر من مات من العشق .. أى آخر شهداء الغرام، وكما يقال: من عشق فعف فمات، فهو شهيد.

فهرس

الصفحة

إقبـــال بركـــة

الإسم بالكامل : إقبال عبد الحميد مصطفى بركة

العمل الحالى : رئيسة تحرير مجلة حواء (دار الهلال)

منذ يوليو ١٩٩٣

الشهادات العلمية :

ليسـانس الآداب فـى اللغة والأدب الإنجليزى جامعـة الاسـكندرية (جيد جداً مع مرتبة الشرف).

ليسانـس الآداب فـى اللغة والأدب العربى جامعة القاهرة(جيد جداً)

الأعمال السابقة :

موظفة علاقات عامة بشركة فيليبس

مترجمة فورية

مدرسة لغة إنجليزية بالكويت

مذيعة بالإذاعة الموجهة باللغة الإنجليزية

محررة بمجلة صباح الخير مؤسسة روز اليوسف

الأنشطــة الاجتماعيــة والثقافية

ـ الإشراف على احتفالات يــوم المـــرأة العالمى بنقابة الصحفيين والثقافة الجماهيريـــة

ـ مؤسســـة جمعيـــة السينمائيات المصريات وسكرتير عام الجمعيـــة منذ تأسيسها.

ـ عضو نقابة الصحفيين واتحاد الكتاب وجمعية الكاتبات

ـ ســـافرت إلى العديـــد مـن دول العالم للسياحة وللاشتراك فى المؤتمرات الدولية والندوات العلمية والقاء المحاضرات فى الجامعات

صدر للمؤلفة

الأعمـــال الأدبيــة

* ولنظل أصدقاء إلى الأبد	روايــــــة	١٩٧١
* الفجر لأول مرة	روايــــــة	١٩٧٥
* ليلى والمجهول	روايــــــة	١٩٨٠
* الصيد فى بحر الأوهام	روايــــــة	١٩٨١
* تمساح البحيرة	روايــــــة	١٩٨٣
* كلما عاد الربيع	روايــــــة	١٩٨٥
* حوار حول قضايا إسلامية	حـــــوارات	١٩٨٧
* رحلة إلى تركيا	أدب رحــلات	١٩٨٩
* حادثة اغتصاب	مجموعة قصص	١٩٩٣
* يوميات امرأة عاملة	روايــــــة	١٩٩٤
* هى فى عيونهم	مقالات نقدية	١٩٩٦

الأعمـــال الفنيــة

* قصة فيلم بحر الأوهام	إخراج ناديــــة حمــزة
* قصة فيلم البنات والمجهول	إخراج د. هشام أبو النصر

* قصة فيلم قضية الأستاذة عفت | إخــراج محمد بسيونى
* قصة مسلسل تمساح البحيرة | إخــراج سيــد سعيــد
* قصة سهـــرة الآخـــرون
* قصة سهـــرة الرهينـــة | إخراج نور الدمرداش
* قصة سهرة فتش عن الرجل | إخراج علـــوية زكـــى



اقبال بركة

واحدة من أبرز كتاب جيلها وأغزرهم إنتاجاً.

بدأت فى إثراء المكتبة العربية بالعديد من القصص القصيرة والروايات منذ أوائل السبعينيات عندما صدرت روايتها الأولى "ولنظل إلى الأبد أصدقاء"

منذ أن جذبتها الصحافة و...مها لايهدأ عن اثارة القضايا ومناقشتها بجرأة وشجاعة مهما كانت شائكة وقد تميزت بثقافة عربية وغربية غزيرة وساهمت برغبة قوية فى المشاركة الإيجابية فى صنع عالم عربى أفضل، متخطية كافة العراقيل.

اشتهر عنها الدفاع عن المرأة العربية والتعبير عن مشاكلها بصدق وواقعية وفى أسلوب قوى معبر وسلس اكتسبته من معرفتها الوثيقه بشئون المرأه على الصعيد المحلى والعالمى شاركت فى العديد من المؤتمرات العالميه ودارت حول العالم فى رحلات كثيرة كتبت عنها، فأضافت أدب الرحلات إلى رصيدها الوفير من الكتابات الأدبية.

عبده غريب